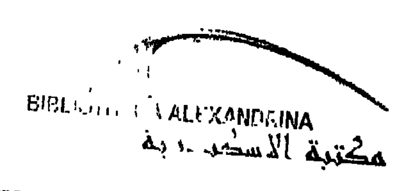

مجدي كامل
عظماء من تحت الصفر



عظماء من تحت الصفر





DAR AL AMEEN

طبع . نشر . توزيع

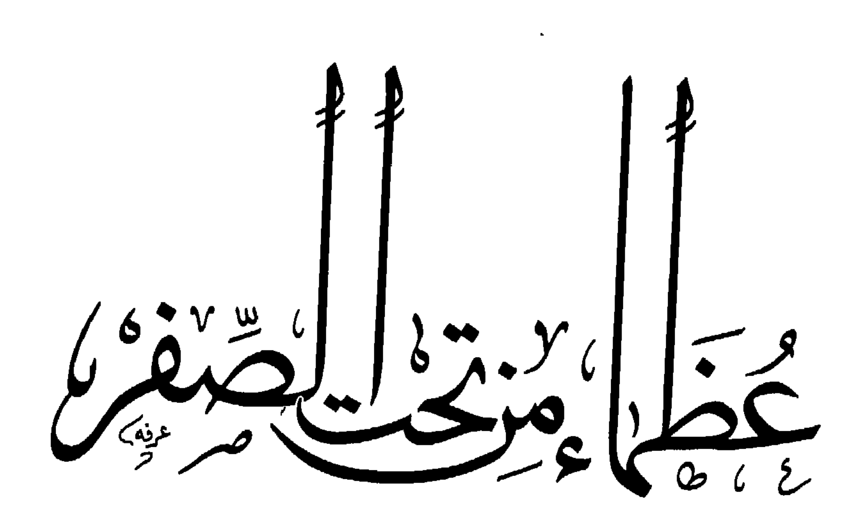
القاهرة : ١ ش محمد محمود
باب اللوق (برج الأطباء)
تليفون : ٣٥٥٨٤٦١

الجيزة : ١ ش سوهاج ـ من
ش الزقازيق ـ خلف قاعة
سيد درويش ـ الهرم

الطبعة الأولى
١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٣ م

رقم الإيداع ٢٤٤٤/١٩٩٤
I.S.B.N.
977—5424—45—3

مجدى كامل





إهـــداء

إلى زوجتى مـــاجـدة وابنى أحمـــد وابنتى سلمى ...

أهدى هذا الكتاب

مجدى



تقـــديم

تكثـر هـذه الأيـام بعض الدعـاوى المغـرضـة ، والآراء الهدامـة ، التى تـريـد أن تجرد عظماء التـاريخ من عظمتهم ، وتفرغ تراث الإنسانيـة الخالد من محتـــواه .

وقد وجدنا أن عملية الإبادة التاريخية هذه لا تجرى فقط فى العـالم الخارجى ، وإنما أيضـا فى عالمنـا العـربى الكبير .. ونحن نـرى فى هــذا المسلك شرا عظيما يمكن أن يعمل على تحطيم مكـانة عمالقـة عاشـوا بيننا ذات يـوم ، وأثروا حيـاتنا بخلاصـة فكرهم ، وعصارة إبـداعهم ، وأضاءوا لنـا الطريق نحو مستقبل أفضل .

ومن هنـا جـاء التفكير فى إعـداد هـذا الكتـاب الـذى نحاول فيـه أن نبين كيف كان طريـق البطولة شـاقا ، وكيف كان بلـوغ العظمة له ثمن غـالٍ فاحش الغـلاء ، وكيف كان عظماء التاريخ يـدفعون هذا الثمن عن طيب خـاطر ، ودون تردد ، حتى يمسحـوا عن جبين الإنسانية دمعة ، أو يـرسمـوا على شفاهها بســـمة .

وقـد روع المؤلف ما يـردده بعض المفكرين لـلأسف أن البطل وليد عصره ، لابد أن يتمخض عنه جيله ، أى أنه بطل رغم أنفـه ، لأن عصره هو الـذى جعل منه بطـلا ، وما كـان يستطيع أن يكون غير بطل !

أى هـراء هـذا ، وأى جحـود ، أبهذه البسـاطـة نجحـد العظمة ، ونهون من قدر العظماء ، ونجعلهم مجرد آلة أوجدها العصر !

كما روع المؤلف مـا قـرأه على صـــدر بعض صحفنـا ومجــلاتـنا من أن قـرب « فـــلان » من موقع السـلطة ، أو « الأحـداث » بحكم مـوقعه جعـــل منـه مفكرا أو كـاتبـا مشهورا .. وهنـا نجرد الكـاتب أو المفكر من جميـع أسلحته وقـدراته ومـواهبه ، ونحيل إبـداعـاته ، ونتـاجه الفكـرى أو الثقافى إلى قربه من مؤسسة السلطة أو صنع القرار .

ومن أسـوأ مـا شهـدته التسعينيـات هـو تلك الحملـة الشرسة والضاريـة التى قادتها أقلام بعض مرتـزقة الفكر من كتاب السير الذاتيـة الجدد لتشويه قادة الفكـر والتنوير ، أو رجـال العـــلم والتطوير ، وإظهار جـوانب مظلمة لم تكن أبـدا فى حياتهم ، وإنما التفســير الـذاتى المغرض للتـاريخ وراء ذلك .

ومن هؤلاء الكتاب من يقبـض الثمن ، أى أنه للأسف مجرد أداة تحاول تحطيم مـــا شيـــده العظماء لأنفسهم من مجد لحســاب جهـات تقدم لهم الثمن والاسم المطلـوب اغتيـال مكانتة .

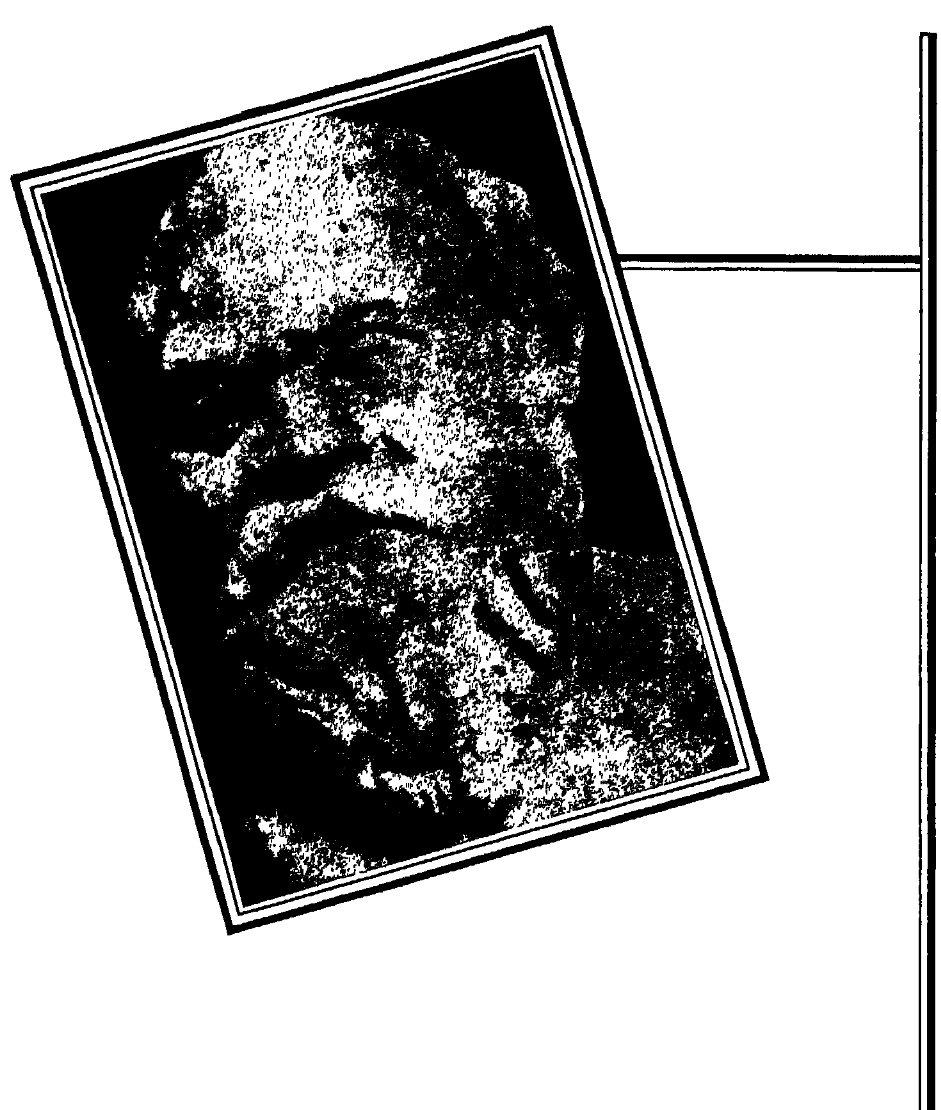
وقد رأينا أنه من واجبنا أن نقـدم من جديد حياة بعض عظماء التاريخ الـذين لاقوا الهوان ، وذاقوا الأمرين ، قـاسوا الويلات ، وتكبدوا المشاق ، حتى قـدموا للإنسانية المعـذبة ما يستحق الذكر .

وفى هذا الكتاب سنجد أن هناك خيطا واضحا يربط بين جميع شخصياته العظيمة ، وهو مولدهم فى بيئات فقيرة ، ونشأتهم فى ظروف حياتية عصيبة ، وتعرضهم لشتى صور البؤس والشقاء ، وتجرعهم كل كئوس الذل والهوان ، وهم لتوهم يبدأون أولى خطواتهم فى مشوار الحياة .. ومع ذلك لم يهنوا ، ولم يضعفوا ، وإنما استجمعوا ما تبقى من قواهم التى خرجوا بها من معركتهم مع ظروف وأوضاع لا ذنب لهم فيها ، ووقفوا صامدين ، يصنعون ويعيدون كتابة التاريخ فى ملاحم بطولية رائعة .

هذا الكتاب يتحدث عن عظماء التاريخ الذين انهالت عليهم الأحجار فخرجوا من تحتها شامخين .

مجدى حسين كامل





سقراط

فيلسوف كل العصور !



هذا الرجل هو أعظم الرجال فى العالم القديم . إنه أكثرهم حكمة ، وجرأة ، وشجاعة ، وإقدام ، لقد فضل الموت على أن يتوقف لسانه عن قولة الحق ، أو تتراجع أقدامه عن الطريق ، الذى أدرك أنه يحمل الخلاص للإنسانية البائسة . بدأ حياته كفنان ، ثم تحول إلى الفلسفة ، وسرعان ما اكتسب سمعة عظيمة كمفكر أصيل .

قبيل الحكم على « سقراط » بالإعدام تنبأ علانية وعلى مسمع من القضاة بأنه لن يكون الضحية الأخيرة للسلطة العمياء ، وقال : « إن التاريخ سيشهد من بعده أن لا خاتمة ، أو نهاية لقافلة العظماء الذين يقدمون للموت - من وقت لآخر - تارة باسم الشعب ، وتارة باسم الدين ، وتارة أخرى بدافع المصلحة العامة » .

وقال سقراط : « إنه فى الجو المشبع بالخوف على زوال مكسب ، أو تصدع سلطان ، أو نهاية حكم ، يفقد أولو الأمر رشدهم ، وتُظّلِم قلوبهم ، ويتخبطون فى قراراتهم ، فيصدرون أحكاما على أعظمهم شأنا ، أو أكثرهم علما ، أو أكبرهم حكمة كأنه أحقر وأحط المجرمين » .

ولم يقف سقراط الفيلسوف الحكيم عند هذا الحد ، فقد تنبأ أيضا باليوم الذى سيعود فيه اسمه إلى قائمة الخالدين فقال : « وبعد الحكم الجائر (ضد الحكماء والعظماء) لا يلبث أن يزول الظرف الذى أملى على أولى الأمر حكمهم الجائر ، وتهمد الغلواء ، وترقد العاصفة ، وينقشع الضباب ، وتسطع الحقيقة ، فيأتى بعدهم من يرفع لهم التماثيل فى الساحات ، ويزين

المدائن بأسمائهم ، فيخلـدون كأكبر المصلحين ، فيما يطـوى النسيان ذ
من أقدموا على إدانتهم أو يذكرون فى عداد الظالمية » .

ومـا أن انتهى سقـراط العظيم من كلمتـه أو بمعنى أدق نبـوءتـه
حُكِمَ عليه بـالموت بشرب السم ، فرضخ للقـرار الظالم ، واستسلم لنهـ
ومـات سقراط فى عـام ٤٠٠ قبل الميلاد ؛ ولكنـه خلـد بفكره ، وأصبح
ذلك الوقت ، وحتى يومنا هذا من عظماء التاريخ الخالدين الذين لا تز
الأيام إلا توهجا وبريقا .

وتكمن عظمـة سقـراط فى أمـور عـدة تجمع بينهـا خيـوط متـدا
ومتشابكة تصنع فى النهاية مجدا لا حد له .

وُلِدَ سقراط فى أسرة فقيرة لا تملك حتـى ثمن تعليمه المبادىء الأ
القراءة والحساب ، كـان أبوه نحاتا مغمورا اسمه « سفـرونيسك » وأمه
فاضلة تسمى « فانا ريتا » . ورغم مولد سقراط بمدينة « ألوباس » الص
إلا أنه انتقل مع أبيه إلى أثينا لينشأ هناك ، ويظل يعمل حتى إعدامه .

فى البداية ، تعلم سقراط مهنة أبيه ، وأتقنها لدرجة مذهلة ، ورغم
تكن تدر عـائدا طيبا فى تلك الحقبة إلا أن سقـراط كان راضيا قـانعا لا
ولا يكل .

وذات يوم ، حدث ما لم يكن فى الحسبـان ؛ فقد دار حوار مثير بينه
نفسـه انتهى بتحول خطير فى حيـاتـه . حدث سقـراط نفسـه : « إنك
نفسك حتى تنقل صـورة جـامـدة إلى الحجر لا روح فيهـا ، ولا تفكـر
تصقل نفسك فتجعل منها تمثالا حيا يجسد الحقيقة الأعلى » .

وعلى الفور تخلى سقراط عن المطرقة والأزميل وانصرف كلية للبحث عن الحقيقة ، وعندما طالبه والده بالعودة إلى النحت قال : « الآثار الفنية مهما بلغت من الجمال تبقى صماء ، أما البشر فينطقون ، وبى حاجة لسماعهم » .

وخلال فترة وجيزة أخذت عبقرية سقراط وخاصة حكمته البليغة تظهر وتشتهر حتى إن أحد أصدقائه ذهب إلى معبد « أبولون » وسأل كاهنة المعبد : « هل فى أثينا من يفوق سقراط حكمة » ، فأجابت : كلا .. وانقل هذا على لسانى إلى سقراط » .

هكذا بدأ سقراط ، وهو لا يتجاوز الثلاثين من عمره طريقه فى الحياة كما رسمه لنفسه ؛ ولكن سقراط الفقير لم يكن لديه ما يدفع منه أجور كبار رجال العلم والفلسفة الذين يفدون لأثينا لتقديم دروسهم لكل من يحب ويهوى .

ومع ذلك ، فقد كان لسقراط عقل راجح ، ورؤية ثاقبة ، وعبقرية مزيدة ، فلم يكن يُسلم بشىء ، أو يأخذه على علته ؛ بل كان يعمل فكره فى كل شىء فاحصا مستقرئا ، متقصيا ، وقال : « إذا قال أحد إن شيئا هو كذا فهل نسلم بأنه كذلك ؛ أم نفحص ما يقول هذا القائل ؟!.

ورغم بساطة هذا الموقف إلا أنه كان خطيرا ؛ بل وينذر بشر مستطير ، فقد وجد سقراط نفسه وجها لوجه أمام أقوال السلطة الحاكمة فى أثينا ، وكلام الآلهة . فمن جهة يدرك هو أن الآلهة لا تكذب ، وفى نفس الوقت السلطة الحاكمة لها السمع والطاعة ، ومن جهة أخرى ماذا لو ثبت بالعقل والمنطق والحجة والبرهان أن السلطة والآلهة فى أثينا لا تفعل الصواب ،

ولا تقول الحق ، هذا هو ما حير سقراط ، ويقال إنه من هذه الحيرة وُلِدَ العقل فى اليونان القديمة .

رأى سقراط وتبين أن سعادة الإنسان لا تتحقق إلا بالفضيلة ، وما هذه الفضيلة إلا معرفة الخير وعمله ، وعلى المرء أمران فى غاية الأهمية ؛ بل هما معيار وجوده ، ودليل كينونته، البحث عن الخير أولا ثم عمله أو اتباعه ثانيا.

كما رأى سقراط فى بحثه عن الحكمة أن الحكمة الحقيقية هى العمل على نشر الفضيلة بين الناس بالتعليم والقدوة أو « كمال العلم لكمال العمل » .

وأدرك سقراط العظيم أن الفضيلة كائنة فى الإنسان ؛ إنما تحجبها ستارات من الأوهام ، والأفكار الخاطئة ؛ لذا قرر أن يأخذ على عاتقة تمزيق هذه الستائر أو الحجب لإخراج الفضيلة من الظلمات إلى النور .

واستقر سقراط عند إسلوب وجد أنه يحقق هذا الهدف ، وتلك الغاية ، وهو توعية الآخرين ، وتنشيط فكرهم فردا فردا بأسئلة ومحاورات تنقلهم من حقيقة إلى حقيقة أخرى حتى يصل إلى النتيجة المحتومة التى ترسو عندها الحكمة والمعرفة ؛ لينطلق الإنسان فى تعديل سلوكه ، أو تقويم اتجاهه فى الحياة بنبذ الشر ، وتوخى الحق والعدل ، ومقاومة الظلم والقهر أو نصرة الضعفاء ، والبؤساء ، والمظلومين .

وأخذ سقراط يجوب شوارع أثينا ، يستوقف الناس ، يحدثهم ، يحاورهم ، كان يفعل ذلك دون مراعاة شئونه الخاصة ، حتى إن هيئته كانت تنم عن الفقر والتقشف ، قاسى البرد والحر والجوع والظمأ فى سبيل الرسالة التى أخذ عى عاتقه أداءها ، والتى جعلته فيلسوف كل العصور بلا منازع .

وكـان يبدأ محاوراتـه بالأسئلـة فيستـوقف مثلا قـاضيا ، وينتهى بـه إلى الاعتراف بأنه مقصر فى خـدمة العدالـة ، مهمل لمصالح الفقـراء ، وأن عليه مراجعة ما مضى من حياته ، بعد مـا جعله سقراط يعترف بذنوبه ، ويقرر أن يبدأ حياة جديدة يكون فيها القاضى العادل .

وكان لسقـراط قدرة على المبـادرة اللطيفة ، والحديـث العذب ، سيـاقة الحجج والأدلة والراهين وتقريب الأمور إلى الناس .

واستمر سقراط على هـذا النحو أكثر من أربعين سنـة ، وكلما كان يكثر أتباعه وتلامذته ، كان يكثر أيضـا أعداؤه ، ويتضاعف عدد خصومه خاصة وأن نزوله إلى الأسواق واختلاطه بالعـامة كاد يقلب النظام الدينى والسياسى فى أثينا .

وكان من أكثر ما قلب السلطة الدينيـة والسياسية على سقراط هو عدم تسليمـه بما يُحكَّى عن الآلهة الكثيرة الموجـودة فى بـلاده ، واعتبر أن الديـانـة التقليدية التى تعتمد آلهة أثينا المتنازعة فيما بينها ليست أساسا سليما للسلوك الأخلاقى ، وقـال : « إن هناك نظاما للقيم معياره الفضيلـة ، ومحكه العقل ، وهو محفور فى ضمير الإنسان ، وليس فى المراسم والطقوس الخارجية .

واجتمع خصوم سقـراط بتأييد من حكـام المدينة ، وكـان أكبر الخصوم ثلاثـة هم : « أينتوس » أحد الزعماء السيـاسيين ورجال الصناعـة الذى أقنع سقراط ابنـه بالانضمام إليه، و « ميلتوس » وهـو شاعر شـاب مغمور طلب منـه أينتوس تقـديم دعوى ضـد سقراط واستعـان بخطيب مشهور اسمـه « ليكون » ورُفِعَتْ الدعوى إلى الملك .

تضمنت الدعوى تهمتين لسقراط أولهما: إنه لا يعترف بآلهة المدينة ويعمل على احلال آلهة جديدة مكانها، ويفسد الشباب .. أما العقوبة المطلوبة فقد كانت الإعدام.

ورغم محاولات سقراط الدفاع عن نفسه، ورغم محاولة أتباعه وأنصاره، وتلامذته التصدى لخصومه وانقاذه من الموت.

ووسط جموع الأثينيين الغفيرة، التى تدفقت إلى قصر الملك، ليشهدوا محاكمة سقراط التى كانت مدبرة من قبل، وما هى إلا تمثيلية معدة بإتقان، للتخلص من أعظم رجل عرفه العالم القديم الذى استطاع أن ينزل بالفلسفة إلى رجل الشارع، ويهبط بها من السماء، ويجعل لها مكانا بالمدن، لتدخل المنازل بعد أن حصرها فى البحث عن الحياة والأخلاق.

□○□○□



محمد على

أعظم الحكام فى التاريخ



كـان جنـديـا مغمـورا من أسرة فقيرة دفعت بـه إلى الجيش كى يشـق طريقه ، ويجد مـا يقيه الجوع والبرد والبؤس والشقاء ، وقـد كان يمكن لهذا الصبى أن يتحول إلى رقـم يضاف إلى قائمـة الجنود ، لـولا أنه كـان يرى فى نفسه الكثير الذى يمكن أن يفعله فى هذا العالم الكبير ..

هـذا هو محمـد على أعظم زعماء التاريخ - فى رأيى الشخصى - وأحـد أفـاضل من أنجبتـه أمة الإسـلام ، كما أنـه نموذج فـريـد للقيادة المفقـودة ، والزعامـة الحقيقية الضائعة فى العالم الإسلامى الـذى يتخبط شمالا وجنوبا ، شرقا وغربا ، ويهيم على وجهه بلا هوية .

لم يكن محمـد على مجرد حـاكم جـاء على قمـة السلطـة فى أعظم بـلاد الحضارة فى العالم ، بل كـان أيضا أكثر من أحبوا البلاد التى حكمـوها ، حبا إيجابيـا ، مخلصـا ، لا يبغى من ورائه منفعـة أو مصلحـة ، كما يـردد مـزيفـو التـاريخ الـذين لم ينهـب الأوطـان أحـد كما فعلـوا هم ، ولم يعث فى الأرض فسادا أحد كما فعلوا هم !

كما أن محمد على مـؤسس مصر الحديثة الذى يدرس فى جميع جـامعات العالم ، وخـاصة طـريقته فى بناء دولـة قوية هـو أحد الحكـام المعدودين على أصابع اليد الواحدة الذين تولوا الحكم فى دول نامية - حتى وقتنا هذا - بناءً على إرادة شعبية ، واختيار شعبى ، وتفويض شعبى .

إن عظمة محمد على أنه لم يكن مصريا ورغم ذلك أصر المصريون وسعوا إليه ، واستماتوا ، وجـاربوا وقاتلوا ليـولونه حكمهم ، وتحدوا الـدولة العثمانية

من أجله . فلم يأت هذا الزعيم فى انتخابات مزورة ، أو استفتاءات مدبرة ، أو فى انقلاب عسكرى ، أو مخطط أجنبى .

ووراء هذا الرجل العظيم قصة كفاح قلما نجد لها مثيلا فى التاريخ .. قديما وحديثا .. قصة عاشها العالم كله ، ولا تزال تدرس فى كتب التاريخ فى شتى بقاع الأرض .

ولد محمد على فى أسرة متواضعة بمدينة « قولة » إحدى المدن الإسلامية فى البلقان فى عام « ١٧٦٩ » ، وهو تركى عثمانى مسلم لا يمت للألبانيين بصلة كما حاول بعض المغرضين أن يروج له ولم ينعم محمد على بأبيه كثيرا فقد مات الرجل وتركه صغيرا ، فكفله والى المدينة ضمن من يجمعهم من الأطفال ليقوم بتربيتهم حتى يكونوا حراسه المستعدين أن يموتوا من أجله .

وتعلم محمد على اليتيم البائس ركوب الخيل ، والمبارزة بالسيف ، وكيفية مطاردة وتعقب اللصوص وقطاع الطرق ، وأظهر محمد على رباطة جأش ، وعزيمة صلبه ، وإرادة حديدية ، وفكر ثاقب ، وقوة قلب غير عادية ولأن الجندى الشجاع لفت إليه الأنظار ، وأصبح معروفا وسط أقرانه ، ثم قادته ، ثم الوالى نفسه ، فقد زوجه هذا الوالى سيدة من قريباته ، ورزقه الله منها بخمس من الأبناء والبنات .

وبعد زواج محمد على ومولد أول أطفاله اتجه لتجارة الدخان فترة من الوقت ، خاصة وأن مدينة « قولة » كانت تنتج أجود أنواع الدخان فى تركيا والعالم .

وعندما جمعت الدولة العثمانية جنود القوة التى قررت تركيا نشرها هناك فى أوربا كان محمد على أحد الذين تم ضمهم إليها ، حيث أظهر بعد ذلك

فروسية وجندية ، وذكاء ودهاء ، وحكمة قيادية رائعة فتمت ترقيتة سريعا من رتبة لأخرى أعلى .

وقد كانت تلك القوة ، التى أطلق عليها « القوة الألبانية » لأنها كانت تضم عددا كبيرا من الألبان ، غريبة فى تشكيلها حيث تجمع داخلها جنودا كانوا قطاع طريق ولصوص ، اللهم إلا قلة قليلة من بينها محمد على التركى المسلم ممن كانوا جنودا شرفاء وبواسل .

وصدر أمر عثمانى بتوجه القوة الألبانية إلى مصر فقد ترك جلاء الحملة الفرنسية من البلاد فراغا سياسيا وأمنيا رهيبا ، وعاد الأتراك ، والمماليك يعيشون فى الأرض فسادا ، يسرقون ، وينهبون ، يروعون الشعب ، ويفرضون الإتاوات قهرا وقسرا .

وما أن وصل محمد على مع القوة إلى مصر حتى شعر بأن هذه الأرض تجمع كل عناصر الدولة القوية إذا ما تخلصت من قوى الشر والظلم وقيود التخلف والتقاعس عن التحاقه بركب التقدم .

وأخذ محمد على يظهر أمام المصريين فى صورة الوطنى المخلص الذى يموت كمدا لما يراه من انهيار فى بلد يستطيع بلوغ المكانة التى تليق به بين قوى العالم أجمع .

وبدأ نجم محمد على يبزغ ، كما بدأ المصريون يلتفون حوله ، واكتشف قادة الشعب وعلى رأسهم عمر مكرم ومحمد كريم أن مصر فى حاجة إلى رجل قوى كمحمد على ، وأفكاره العظيمة ، وعقليته الفذة ، وإلمامه الشديد بجميع المخاطر التى تحدق بمصر والعالم العربى ، التى أخذت قبضة الدولة العثمانية تضعف عليه مما يجعله عرضه لشتى أنواع الاستعمار الأجنبى ،

والاحتلال من ناحيـة ، أو استيلاء اللصوص وقطاعى الطـرق على ثرواته من ناحية أخرى .

وعندمـا ساعـدت أحوال المصريين مع الـولاة العثمانيين الذيـن أعقبوا خروج الفـرنسيين من مصر ، طلب المصريون تولية محمـد على عليهم فرفض السلطان العثمانى ؛ فحاصروا القلعة خاصة بعـد ما نجح خورشيد باشا والى مصر فى استصدار فرمان من الباب العالى بعودة القوة الألبانية ورؤسائها من مصر .

وأمام قوة الإرادة الشعبية والوطنيـة المصرية التى قامت بممارسة ضغوط لا قِبَل للأستانة بها نزلت الدولة العثمانية على رغبة المصريين ، خاصة بعد أن اشتعلت ثورة الشعب على الأتراك ، وبالفعل تم عزل خورشيد باشا والموافقة على تعيين محمد على .

ومن عظمـة هـذا الرجل أنـه لم يسع لمنصب ، ولم يلهث وراء سلطـان ، ويكفى أن العلماء ، والنقبـاء ، والزعماء المصريين اجتمعـوا بدار المحكمـة فى يوم الاثنين ١٣ مـن مايـو عام ١٨٠٥ ، وأجمعـوا على عزل خـورشيد بـاشا ، وتعيين محمد على ثم توجهوا إليـه ، وقالوا له : « إنا لا نريد هـذا الباشا حاكما علينا ، ولابد من عزله من الولاية » .

فقـال محمد على : « ومن تـريدونه يكـون واليـا ؟! قالـوا له : لا نرضى إلا بك ، وتكـون واليـا علينا بشروطنـا لما نتـوسمه فيك مـن العدالـة والخير ، فامتنـع محمد على فى البـداية ، ثم ضغطـوا عليه فرضـى ، واحضروا له كـركا وعليه وقفطان ، وقـام إليه عمر مكرم والشيخ الشرقاوى فألبسـاه إياه ، وكان ذلك فى وقت العصر ، ثم بعثوا من ينادون بذلك فى المدينة » .

وهكذا فازت إرادة الشعب ، وأثبتت الوطنية المصرية فعاليتها ووجودها وكـان انقلابـا خطيرا فى مـوازين القوة فقـد تحدت مصر الـدولة العثمانيـة ، وأجبرتها على الاعتراف بحق المصريين فى تقرير مصيرهم لأول مرة فى التاريخ الحديث ، كما كانت إرادة الشعب - لأول مرة - لها اليـد العليا فى اختيار من يحكم البلاد .

ورغم أن تركيا خلعت على محمد على - مضطرة - لقب البشوية ، ورغم أنه قد جرت العادة على أن ينغمس الولاة فى ملذاتهم ، ويجرون وراء شهواتهم ولا يهتمون إلا بجمع المال ، وفرض الضرائب ، والتنقل بين أحضان النساء ، وارتكاب شتى أنـواع الجرائم ، وعدم توخى العدل ، ونهب ثـروات البلاد .. رغم كل ذلك ، كان محمد على نموذجا مختلفا تماما . لقد كان فى جعبته ما هو أغلى ، وأقـدس ، وأهـم بكثير من تلك الصغـائر التى لم تكن لترضـى رجـلا عظيما نادر الوجود كمحمد على .

لقد شعر محمد على منذ اللحظـة الأولى التى تولى فيها الحكم أنه جلس على عرش مملكـة عظيمة ، أفسدها ولاتها السـابقين وسياساتهم التخـريبية ، فقـرر انتهاج سيـاسـات أخرى من شـأنها الارتقاء بمصر وأعـزازهـا كدولـة إسـلامية ، فعكـف على العمل المضنى والسريع ، وبدأ الإصـلاح الشـامل ، وبناء قوة تصون تراب الوطن ، وتحمى حماه .

فى البـداية ، رأى محمـد على أن الإصلاح لا يمكن أن يتم دون القضـاء على اللصوص ، وسارقـى ثروات البلاد ، وكسر شوكة المماليك الـذين يعيثون فى البلاد فسادا .

وبـالفعل قضى محمـد على على المماليك وألغى نظـام الالتـزام الجائر ، وقضى على القوات العسكرية القديمة وتخلص من الجنود الغير نظاميين .

ويبدو أن تولى هذا الرجل حكم مصر بهذه الطريقة المثيرة ، قد فتح أعين الإنجليز ، الـذين شعروا بخطورة هـذا القائد العظيم ، فأرسلوا حملـة بقيادة فـريزر فى عـام ١٨٠٧ ، واتصلوا بـالمماليك لمسـاعدتهم على استعـادة حكم مصر .

ولكن محمد على وبمسـاندة الإرادة الشعبيـة تمكن من هزيمـة الإنجليز الذين لم يجدوا فى النهاية مفرا من الجلاء عن مصر .

وفى عام ١٨١١ وبينما محمد على يقاتل لمحاربة فلول المماليك الهاربة هنا وهنـاك ، مع مراقبـة أمـرائهم مراقبـة لصيقـة حتى لا يستعيدوا نفـوذهم من جديد ، طلبت تركيا منه إرسال جيش إلى الجزيرة العربية لمحاربة الوهابين ، وخشى الـرجل من استيـلاء المماليك على السلطة فى مصر ، فقـرر التخلص منهم بصفة نهائية ودبر مذبحة القلعة ليخلص البلاد والعباد من شرهم .

وبدأ محمد على فى ظـل الاستقرار الأمنى الجديد فى بناء الـدولة الحديثة متسلحا بآخر ما وصـل إليـه العالم المتطـور ، من خـلال استقدام العلماء أو إرسـال البعثـات حتى أصبحـت مصر أقـوى دولـة فى الشرق الأوسط فى النصف الأول من القرن التاسع عشر .

وقد اعتمـد محمد على فى بنـاء الدولـة على تكوين جيش مصرى جـديد وأسطـول قـوى يحـمى سواحـل مـصر ، وتنظيـم الإدارة وإنشـاء الـدواوين (الـوزارات) والارتقـاء بـالتعليم بفتح المدارس و« الكليـات » ، وعمل نهضة فكرية ، والنهوض بالزراعة والصناعة والتجارة .

وقد أثبت الجيش المصرى الجديد كفاءة نـادرة فى حروبه فى الشام وآسيا الصغرى لتنمية موارد مصر ، وحماية البوابـة الشرقية ، وأنشأ محمد على ترسانة الإسكنـدرية واشترى سفن حـربيـة من أوروبـا حتى أصبح للبلاد أسطـول

رهيب دفع إنجلترا وفرنسا وروسيا للتآمر عليه ، ومحاولة تحطيمه فى موقعة نوارين عام ١٨٢٧ .

وعلى مستوى التعليم أنشأ محمد على المدرسة الحربية - الكلية الحربية اليوم - والمهندسخانة (الهندسة) والطب والألسن والصيدلة ، والزراعة ، والطب البيطرى ، والفنون والصناعات ، والمدارس الابتدائية والثانوية ، وبعث أبناء مصر إلى الخارج وأنشأ مطبعة بولاق عام ١٨٢١ ، وأصدر صحيفة « الوقائع المصرية » والكتب الثقافية .

وفى الزراعة نحن ندين لهذا الحاكم العظيم بمعظم إنجازاتنا التى ورثناها فى عام ١٩٥٢ ، وقمنا - فيما بعد - بتخريبها وتدميرها للأسف !

فقد قام محمد على بعمل مسح شامل على الأراضى الزراعية وتحديد الضرائب على الفلاحين بعد توزيع الأراضى عليهم ، وقام بزيادة المساحات المزروعة ، واستصلاح مساحات واسعة شمال الدلتا ، وشق ترعا كثيرة منها المحمودية والمنصورية والباجورية ، وأنشأ القناطر العديدة لضبط عمليات الرى ومنها القناطر الخيرية على رأس الدلتا ، ويكفى أن مساحة الأراضى أصبحت ضعف ما كانت عليه قبل حكمه .

وتمكن محمد على من تنويع الإنتاج الزراعى باستحداث أنواع جديدة ، وخاصة بالنسبة للقطن الذى أصبح أهم صادرات مصر .

كما اهتم محمد على بالتجارة وكان الأسطول المصرى وميناء الإسكندرية الذى قام بإصلاحه من ركائز صادرات مصر إلى العالم الخارجى .

واستطاع محمد على أن يسترد الحجاز من أيدى الوهابيين ، ويدخل الدرعية ويأسر عبد الله بن سعود أمير نجد ليخلص الحرمين الشريفين من

أيـدى الوهـابيين الذين كـانوا قـد عظم خطرهم فى نجـد والحجاز وهـددوا العراق والشام ، وأصبح ابنه إبراهيم واليا على الحجاز .

وضـم محمد على اليمن والسودان بـالإضافة إلى الشام والجزيـرة العربية ، وأصبحت مصر أقوى امبراطورية فى المنطقة ، بل إن إنجلترا وحدها أو فرنسا وحدها لم تكن تستطيع أن تمتلك ما لدى مصر من قوة ونفوذ وسلطان .

لكن إنجلترا لم تـرضَ عن التوسع المصرى وحـاولت الضغط على مصر للخروج من اليمن، والجزيرة العربية والاكتفاء بمصر والشام والسودان .

وهكذا قـامت فى الشرق دولة عربية كبرى كأول محاولـة لجمع العرب فى كيان مستقل عن الدولة العثمانية .

وقد حاول مزيفو التاريخ تصوير هذا العملاق الذى وصفه الغرب بأنه « مؤسس مصر الحديثة » و « صاحـب العقلية الخارقة » و « القائد العظيم » فى صورة الأجنبى الدخيل الذى حـاول أن يبنى امبراطورية لنفسه ، ويستقل بثروات البلاد ، لإرضاء أطماعه ، ومصالحه . إنها البلاهة والسفه أن نقول هذا على هذا المحب المخلـص الذى لم تعرف مصر أو العـرب من يستطيع المرور بها فى هذا العالم المتلاطم الأمواج كهذا الرجل .

والسؤال هـو لماذا جمع محمد على السلطـات فى يده .. أليس لتحـديث البـلاد ؟! لماذا بَنَى الجيش .. أليس للـدفاع عن مصر ؟! ونقل رقعـة الحرب خارج الحدود المصرية .. لماذا يأمر محمد على بزراعة الأشجار على النيل التى قمنـا نحن لـلأسف بقطعهـا ؟ لماذا أرسل المصريين فى بعثـات إلى العـالم المتقـدم ؟، لماذا أنشـأ مطبعـة وأصـدر صحيفـة ؟ لماذا .. ولماذا .. ولماذا ؟! أسئلة وأسئلة رغم أن إنجازات هذا الرجل العظيمة لا تحتاج إلى كلام .

وهناك من يتهم محمد على بالدكتاتورية ، وهذا أمر فى غاية الغرابة لأننا نسقط من حسابنـا هنا الحقبة التـاريخية التى عاش فيها محمـد على ، ويكفينا أن نعرف أن فـرنسا أكبر الـديمقراطيـات فى العالم فى ذلك الوقـت كان حق الانتخاب فيها مقيدا بنصاب مالى قدره ١٥٠ فرنكا !! .

إن احـــداً لا يستطيع أن يجرد محمـد على من عظمتـــه أو يجرد المصريين الأوفيـاء غير الأفاقين أو المضللين من اعترافهـم بفضل محمد على على هـذه الأمة العظيمـة التى كان مـن العدل أن يحكمهـا رجل فى عظمة هـذا القائد الملهم ، والسيـاسى البارع ، والمصلح الأعظـم ، الذى أحب مصر أكثـر ممن عداه من الحكام الذين تعاقبوا عليها .

رحم الله محمد على ذلك الجندى المغمـور الذى مات أبوه وتـركه وحيدا يهيم على وجهه بـلا هوية حتى التقطه أحـد الولاه الذين تـوسموا فى الصبى خيرا ، واكتشفوا فيـه ما أثبتت الأيام أنـه لم يكن عرضيا ،وإنما كـان متأصـلا فيـــه .

إن العظمة فى محمد على هى أن بطـولته وقوته وعظمتـه لم تكن نوعا من التهـور أو الطنطنـة أو الهلفطة ، لم تكـن عظمة محمـد على فى نبرات صـوت مجلجلة ، ولا عبـارات تهيج للناس مزلـزلة ، أو افتعال عـداءات ومشكلات وأحداث لا مبرر لها ، إن عظمـة محمد على كـانت تكمن فى أنه فعـلا عظيم بل إن ما فعله هذا الرجل يدفعنـا إلى القول بأنه فعلا أعظم الحكام فى تاريخ العالم كله .

□○□○□





ليوناردو دافنشى

وأجمل ابتسامة عرفها العالم !



الناس لا تعرف عنه سوى أنه كـان عبقرية فذة فى التصوير والنحت .. وما يذكر اسمه إلا ويتبادر إلى الزهن أعظم أعماله ، وأشهر لوحة فنية عرفها التاريخ ، ومع ذلك فقد كان صاحبنا عبقـريا فى مجـالات أخـرى كثيرة .. إنه أحد العظماء الذين قلما يجود علينا الزمان بمثله .

كان الفنان العظيم ليـوناردو دافنشى يرسم لوحتـه الشهيرة « الموناليزا » أو « الجيو كنـدة » كما تسمى ، عندمـا توقف فجـأة ، ووضع ريشته جـانبا ، واستأذن الموناليزا الحقيقيـة التى تجلس أمامـه ببضع دقائق ، وبينما السيـدة الرائعة الجمال تنتظـر فإذا بعدد كبير من الموسيقيين يدخل الغـرفة ، ويبدأ فى عزف أرق الألحان .

فى البـداية ، شعـرت السيـدة الفاتنـة بدهشـة مـا بعـدها دهشـة .. ارتكبت .. ضحكت .. بكت .. وهمت بـالانصراف فـإذا بـدافنشى يبلغهـا بمنتهى اللطف أن كل هؤلاء من أجلك سيدتى ! لقد بعثت فى طلبهم حتى يعزفوا لكِ بديع الألحان لكلى تحتفظى لى بابتسامتك الرائعة .

وبمجرد أن وضع دافنشى اللمسات الأخيرة من لوحته الخالدة ، أمسك بقلمه ، وأخذ يكتب فى مذكراته مصـورا أحاسيسه ومشاعره فى هذه اللحظة التاريخيـة : إن جميع الحواس لتتمنى أن تلتهم صاحبة هـذه اللوحة التهـاما ، وخاصـة هذا الفم الـرشيق الذى يشتهـى كل جسد أن يكـون له مثلـه ! أما صاحبه اللوحـة ، واسمها « موناليزا » زوجة « فرانسيسكو جيـوكوندو » أحد أعيان فلورنسا فقد قالت : « هذه اللوحة ستمد عمرى لقرون » !!

والحقيقة ، أن ما من مصور ، أو رسام عـرفه العالم انبهر بعمله ، أو افتتن بلوحـة رسمها كما حـدث مع دافنشي ، حتى إنـه قال : « سيظل العـالم بعد مماتى يتأمل هـذه اللوحة ويتسـاءل كيف نقلت ملامح هذه المرأة ، وخـاصة ابتسامتها بهذا القدر من العظمة » .

ولكن هذا الفنان العظيم ولد من رحم البؤس ، ونشأ بين أحضان الأسى والشقاء ، بل وكـانت هناك وصمـة عار لا ذنب لـه فيها ظلت تطـارده طيلة حياته ، وتحط من قدره أمام بعض الرعاع من الناس الذين كانوا ينظرون إليه بعيد الحسد .

فقـد أدرك دافنشي بمجرد أن وعى المحيط الخارج للفـراغ الذى يمثلـه جسده ، أن أمه ولدته نتيجة لزواج غير شرعى بأحد الموثقين واسمه «بيرو» .

وما أن عرف الصغير أن أبيه اسمه « بيرو » وأنـه يستطيع الوصول إليه ، حتى أدرك أنه مات ، وترك من أربع زوجات عشرة ذكور ، واثنتين .

وقد استمات دافنشي لكن يعترف إخـوته به كابن شرعى ، وأن يكـون له نسب كبقية إخوتـه ، إلا أنهم كانوا يخشـون إن فعـــلوا ذلك ، أن يقاسمهم ما تركه الأب من ثروة ضخمة .

وهكذا وجـد دافنشى نفسه ، بـلا نسب ، وبـلا لقب يقدم بـه نفسه إلى الناس ، وقـد ظل دافنشى الـذى اختار لنفسه هـذا اللقب أن يقاسـى الفقر والعوز مع أمه حتى رحلى وتركته وحيدا فى بحر الحياة الهائج .

ويبدو أن القـدر أَبَى إلا أن يعوض صاحبنـا عما يكابده فى حيـاته خير تعويض ، فقد بزخ نجمه ، وعـلا اسمه ، حتى بلغ الآفاق ، ولم تقف مواهبة وشهـرته عنـد التصويـر والنحت وإنما تجاوز ذلك حتى كان هـو عبقريـا فى مجالات شتى .

فقد كـان عالما فى الميكـانيكا ، والتشريـح ، والاستاتيكـا والديناميكا ، والموسيقى ، والغنـاء ، والجيـولـوجيـا ، والهيـدروليكـا ، وعلم الحرارة ، والسمعيات والهندسة العسكرية والعمارة .

كما كان حجة فى علم الأخـلاقيات والفلسفة واللغة الـلاتينية ، كما كان موسوعة من العلوم والفنون .

وقد أثـار دافنشى دائما حوله خصـومات لا حـد لها ، خاصة وأنـه كان معبود النسـاء بقوة بنيـانه ، ورشـاقته ، ووسامتـه ، وعذوبتـة حديثـه ، وحلو معشره ، وقوة حجته .

ولأنـه ما من عظيم إلا وتعـرض للمكـائد والمصائب لكثـرة خصومـه ، وأعاديـه ، فقد كان على العبقـرى دافنشى أن يواجـه سلسلة لا حصر لها من المؤامرات والافتراءات ، والاتهامات ، والأكاذيب الملفقة .

فقد حاول خصومه الترويج لفكرة مؤداهـا أنه شاذ جنسيا وفاسد خلقيا كما بعث أحـد خصـومـه بشكـوى لا تحمل تـوقيعـا إلى القصر يتهم دافنشى بـالفسق ، ولكن التحقيق معه أثبت بـراءته من هـذه التهم مما جعل أعـداءه يشتاطون غيظا .

ورغم أن دافنشى قد اعتقد أن خصومه سـوف يتوقفون عن مهاجمته بعد كل ما جـرى إلا أنهم عادوا ليوجهون إليـه اتهاما عقوبته الإعـدام إذا ما ثبت عليـه .. هذا الاتهام هـو الكفر والإلحاد ، وقـد حـاول أعداؤه الاستفـادة من مـوقف دافنشى المعـروف للجميع من حيث كـراهيتـه للطقوس الكهنـوتيـه المعقدة وسيطـرة رجال الكنيسة ، والتصـاقه بدعـاة التحرر وترويجه لـلأفكار التحـــررية ، وكما استطـاع دافنشـى أن ينفى عن نفســه التهمـة الأولى .. والثانية .. والثالثة نفى الأخيرة وما بعدها أيضا .

ولكن شرور العالم الذى كان يحيط بـه ، جعله يغلق على نفسه ، ويحيا فى عالمه الخاص ، فقـد أحب العـزلة ووجـدها الحل الـوحيد للتركيـز والإبداع واتقاء شرور خصـومة ، ويقـول دافنشى عن ذلك : « الخلوة هـى أُمُ الحرية ، فإذا مـا كنت وحيـدا فأنت ملك لنفسك ، وإذا كنت مع رفيـق واحـد فلن تملك إلا نصفك » .

وقد كـان دافنشى يحلق كطائر فى آفاق المعـرفة الواسعـة ، كما كان يحلق أيضا كطائر فوق كل ما تحوى الطبيعـة من جمال ، كان يتسلق الجبال ، يرقب الطيور ، والحيوانات ، يدرس حـركاتها ، وكما بلغ دافنشى شهرة واسعة ، بلغ أيضا ثـروة عظيمة ، ولكنـه كان متقشفـا بطبعه ، يكـره المال ويحتقره ، وكـان يقـول عن المال : « كل مـا تنفقه على نفسك ملك لك ، وكـل ما تجمعـه ولا ينفعك فى حياتك ملك لغيرك ، على الرغم منك » .

وقد كـان لدافنشى قلبا يمكن أن يضـم بين جناحيه كل النـاس .. كان طيبـا لا يؤثـر الحيز على نفســه ، يتألم إذا لمح الأسى فى عيـون الفقراء ، فكـان يجذل لهم العطاء دون انتظـار شىء ، وكان يحب مجالـة العامـة ، رغم تهافت حكام فلـورنسا وميـلانو وروما وسـائر أنحاء إيطـاليا على الاستئثـار به لكى يبدع لهم ، ويشيد لهم من وحى خياله القصور والتحف المعمارية .

وقد ظل دافنشى العبقـرى الذى وهب نفســه لفنه فقط يتنقل بين المدن بإيطاليـا حتى رحل إلى فرنسا ، بعـد أن عرض عليه ملكها فـرانسوا الأول أن يرافقة ، وخصص له قصر يقيم فيه هـو وتلاميذه من محبى الفن ، وراتبا قدره ٣٥ ألف فرنك ، وكان وقتذاك ثروة هائلة .

ولكن دافنشى لم يعمل طـويـلا ، فقــد أُصيبت يـده اليمنى بـالشلل ، وبعد فترة وجيزة توفى ودفن فى مقبرة مؤقتـة فى الثالث من مايو عام ١٥١٩ ، ثم نُقل بـعد ذلك إلى « ديـر سـان فيو نتينو » تـاركا للعـــالم عدداً لا يُحصى من التحف المعمارية ، واللـوحات الفنية ، وتراث نادر فى علـوم شتى تجعـله من الخالدين .

□○□○□



بيرم التونسى

مأساة تنتهى بمأساة !



حياة هذا الـرجل تبدأ بمأسـاة يمتزج فيهـا البؤس والشقـاء ، وتنتهى أيضـا بمأسـاة ، لا تقل ألما وعـذابا عـن مثيلتها فى حيـاتـه الأولى ، وفيما بين البداية والنهايـة قصة كفاح عظيمة بطلها هذا الشـاعر ، الذى قرر أن يحمل هموم الناس ، ومعـاناتهم على كتفيـه ليسير بهم فى بحور شعـره ، ويفجر من خـلالهم قضايـا خطيرة لم تكن سوى قنـابل ملغومـة ، لا يجرأ الكثيرون على الاقتراب منها ! كما كان نبضا صادقا لرجل الشارع العادى ، ومتحدثا باسم الفقـراء ، والغـلابة ، ونصيرا للكـادحين المهضـومـة حقـوقهـم فى مجتمع لا يعترف القائمون عليه إلا بسلطان الجاه ، والمنصب والمال .

هذا هـو بيرم التونسى الذى بلغت قـوة تأثيره فى الناس وعظمة مـواقفه وموضوعـاته التى عبر عنها من خلال أشعـاره العامية وأزجالـه للدرجة التى جعلت أمير الشعراء أحمد شوقى يقول مشيدا بمكانة صاحبنا : « إنى أخشى على الفصحى من بيرم » .

وتكمن عظمة هـذا العملاق الراحل فى تعبيره الصـادق عن الشخصية المصرية فى مطلع هـذا القرن ، تلك الفترة الصـاخبة بـالأحداث المتـلاحقة ، والتقلبات السياسية ، والاقتصادية الموجعة للسواد الأعظم من أبناء النيل .

وتكمن عظمة هـذه القمة الأدبيـة الشامخة ، الـذى استحق عن جدارة لقب « فنان الشعب » فى أنـه لم يكن يتكسب من شعره على حسـاب مبادئه أو أخلاقياته ، فبيرم التـونسى أَبَى إلا أن يكون فنه مرآة تعكس نبض المصرى الأصيل ، الذى ينام جوعا على أن يبيع كـرامته ، ويتحرر من التزامه بقضـايا بنى وطنــه .

ولم يكن بيرم التونسى مجرد شـاعر يستخـدم الكلمة ، وإنما كان مقـاتلا سلاحـه الكلمة ، ولم تكن كلماته سـوى رصاصـات يصوبها نحو المتـاجرين بقـوت الشعب ، المغتصبين حقـه الطبيعى فى أن يحيـا مستقـلا حـرا ، يقـرر مصيره بنفسـه ، ولعل هـذا هو الـذى وضعـه فى طليعـة زعماء النضال ضـد الاستعمار وعملائه ؛ الأمر الذى جعله يتجرع شتى ألوان العذاب والقهر .

ولعل مواقف بيرم الجريئة والصريحة هى التـى قلبت عليه أناس كثيرين ممن يرفضون نهضة الشعب وثورتـه ضد قوى الظلم والعدوان ، أو سعى أبناء النيل لانتزاع أبسط حقوقهم المشروعة فى العيش فى حرية وعزة وكرامة .

ومن هـذه المواقف تلك المعركـة الشهيرة التى خـاضها بيرم بشعـره من أجل سعـد زغلول زعيم الأمـة ، أمـا طرف المعـركة فقـد كـان مفتى الديـار المصرية فى تلك الحقبة الشيخ محمد بخيت ، الذى عارض علانية سفر سعد إلى باريس لعـرض القضية المصرية والمطالبـة بحقوق الأمة المنهوبـة ، وما أن كتب بيرم أبياتـه مهاجما الشيخ بخيت حتى قامت الـدنيا ولم تقعد ، خـاصة بعـد مـا أصبحت كلمات بيرم على كل لسـان ؛ بل إن جموع الشعب خـرجت ترددها أثناء المظاهرات فى شوارع المحروسة .

ولننظر سويـا ماذا قال صاحبنـا فى الشيخ بخيت الذى خرج عن إجماع الأمة وآثر أن يكون له موقف آخر يتماشى مع الإنجليز والقصر :

أول مـــا نبـــدى نصلى على النبى

نبى وطنى يلعن أبـــوك يـــا بخيت

تـانى كـــلامى وفـد مصر بـــلادنـا

ولع شمـــوعـــه والتقـى الكبريت

تلاتين سنة يـا مصر واحنا فى ظلمة

لمـــا حـدايتنـــا ربت الكتـــاكيت

راحـم رجـال الـوفـد وادى فـرنسـا

أم الأدب والحـــــــظ والتنكيـت

وقد كـان غضب المفتى شديـداً للدرجـة التى أصدر فيها بيـانا شـديد اللهجة يتهم فيه بيرم التونسى بالكفر والإلحاد !

ويرد بيرم يهجـو الشيخ بكلمات لا ينطق بها سوى شـاعرنـا المشاغب ، والجرئ ، انظر إليه يقول :

يـا بخيت يابـو دومـة يابـو خلقـة مشؤومـة

لاديك بـــالشـــومـــة إذا كنتش تـــرجع

ضبــــــوك متنيـل عــــــالقصر محول

تجرى وتتشنـــــدل وعـــــامـل واد مجدع

إتلم أحسـن لك دا الشعب قـــاعـــد لك

بـــــالصرمـــــة يــــذلك إنمـل واسمع

ثم يقلب بيرم المعـركة إلى مـزاح وفكاهـة مستغلا خفـة ظله فيخـاطب الشـيخ :

يـــــا شيـخ بخيـت كـــــلام فى سرك

حـــايعلقـــو لك فـــانـــوس فى زرك

ويهاجم بيرم بقسوة رؤساء الوزراء السـابقين الذين أخفقوا فى التفاوض مع الإنجليـز للجلاء عن القنـال ، واكتفـوا بإقـامة المهـرجـانات ، وتـوزيع الوظائف والترقيات على بطانتهم ومحاسيبهم ، انظر إليه كيف يقول :

أربع وزارات يحيروا فيكى يـا مفـاوضـات
الأولـة حيرت مـاهـر ومـاهـر مـات
والثـانيـة محمـود أهـو راجع لها بـالـذات
والثالثـة صدقى اللى هو صـاحب الكفاءات
لكن داوننج ستريـت واقف بكل ثبـات (١)
يقـول لنـا مسألتكـم مسألـة بـاشـوات
نحكم ونفـرح ونتمخطـر فى مهـرجـانـات
ومـوظفين تنتش وتنط عـالـدرجـات
وكلهم عنـدنـا خُـدام فى الشركـات
البـدرشين والقنـال والملح والفـوسفـات

وقد كـان بيرم التونسى مصلحـا اجتماعيا من الطـراز الأول ، ولم يصلح معه الطرد والاستبعاد والنفى خارج البـلاد من أن يصرخ بأعلى صوته مطالبا بمقاومة الفقـر والجهل والمرض والقضاء على جميع الظواهـر السلبية فى حياة الوطن والمواطنين البسطاء .

ولنرى كيف قـاوم بيرم ظاهرة اللصوصية ، والنشل والتسـول وكيف قام بإحيـاء مشروع كـان قـد أقـره محمـد على بترحيل اللصـوص والفتـوات إلى الأراضى البور لاستصلاحها بدلا من أن يعيثوا فى الأرض فسادا :

لم اللصـوص والنشـالين والشحـاتين وحطهم
فى أرض بـور تصبح إذا مـا أصلحـوهـا ملكهم
الأرض جـابت والعبـاد اتخلصـوا مـن شرهم
وهم ذاتهم أصبحـوا أعيـان وأشيـا فللى
الفـاتحة لمحمـد على

(١) اسم الشارع الذى يقع فيه مقر رئاسة الحكومة البريطانية .

هنـا اللصـوص مئـات ألــوف وأرضنـا بـور كلهـا
شيل من هنـا وإحــدف هنـا وكل أرض وأهلهــا
حسبــة بسيطـة هينــة مش عـايــزه لجنـة تحلهـا
وتقـول يــالجنـة تعـد لى وتقـول يــالجنـة اتشكلى
الفــاتحة لمحمــــد على

تهذيب سجـون تطبيق قانـون دا كل دا رايح عبس
اللص حــاسب حسبتــه وعنــده أحسن يتحبس
فى كل خمسين مــرة سرقــة واحــدة فيهــا ينكبس
ومن جــديـد يــرجع وجيبــه من جيـوبنــا يتملى
الفــاتحة لمحمــــد على

ما انساش فى يـوم رحت أشترى لأعز أحبابى كفن
مــات الفقير فى يـوم عسير وجــارى سلفنى الثمن
شــال اللى هــو المحفظـة وزاد على حــزنى شجن
وبــات على ورقـــة حشيش مع الحبــايب مختلى
الفــاتحة لمحمــــد على

وهكذا كان بيرم منذ أن خرج إلى الناس شاعرا ، ويكفى أن أول قصيدة نُشِرَتْ لـه وكانت تنتقـد المجلس البلـدى فى مدينتـه الإسكندريـة - مسقط رأسـه - أثارت ثـورة عارمـة عليـه ، رغم أنها صادفت هـوى لدى النـاس ، وبيعت خمسين ألف نسخة الأمـر الذى جعله فى نهاية الأمـر أن يترك عمله ، ويصـدر مجلـة باسـم « المسلة » وكـان يحارب من خـلالها الاستعمار والفقـر والأحزاب المهادنة والذمم الخَرِبة ، والضمائر المنحرفة .

وعندما قامت ثورة ١٩١٩ أصر بيرم على التوجه إلى القاهرة ليعايش هذه الملحمة الشعبية عن كثب ، وأخذ يهاجم الإنجليز ، ورجال القصر والعملاء ، ورجال الدين المنحرفين حتى هاجم الملك فؤاد بعنف فاجتمعت أسباب كثيرة لنفيه خارج البلاد من خلال الإنجليز الذين اقنعوا المسئولين بالقنصلية الفرنسية بترحيله فورا إلى تونس .

وهناك قصة غريبة سبقت نفى بيرم التونسى ، فقد أصدر بيرم العدد ١٣ من صحيفته « المسلة » وكأنها صفعة قويةِ على وجه الملك ، خاصة عندما كتب قصيدة تحت عنوان « البامية الملوكى .. والقرع السلطانى » وكانت عبارة عن إسقاط يريد به بيرم فضح خبايا القصر ومن بينها مولد وريث العرش بعد أربعة شهور فقط ، تقول هذه القصيدة :

البامية فى البستان تهز القرون
وجنبها القرع المملوكى اللطيف
والديدبان داير يلم الزبون
صهين وقدم وامتثل يا خفيف
مرمر يا زمان مرمر
البنت ماشية من زمان تتمخطر
والغفلة زرعة فى الديوان قرع أخضر

ويمضى بيرم فى قصيدته ليهاجم بدرجة أعنف وأقوى فيقول :

الوزة من قبل الفرح مدبوحة
والعطفة من قبل النظام مفتوحة
ولما جت تتجوز المفضوحة قلت
سكتوا وخلوا البنات تتستر
مرمر يا زمان مرمر

وعندما غادر بيرم الإسكندرية مجبرا إلى تونس ، وعمره لا يتجاوز السابعة والعشرين كانت زوجتة حاملالا ، وأكبر أولاده من زوجته المتوفاة عمره سبع سنوات ، وهناك هاجم الاحتلال وسار على نفس النهج ، وبدأت السلطات تحاصره فاتجه إلى باريس حيث يفشل فى الحصول على عمل هناك ، وذهب إلى مدينة ليون ليعمل فى مصنع للحديد والصلب ، ويتعرض لحادث سقوط كتلة معدنية على ساقه ليترك المكان ، ومعه شهادة حسن سير وسلوك مكنته من العمل فى أماكن أخرى بفرنسا .

وقد انفعل بيرم بالتقدم والمدنية فى أوربا ، وأخذ يطالب رفاقه فى الشرق بالنهضة والصحوة وكتب يقارن بين الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى أوربا ومثيلاتها فى العالم الغربى حتى أدق الأشياء وأبسط مظاهر الحياة ، وصفها هنا وهناك ، وعقد مقارنة بينهما فيقول مثلا :

هاتجن يا ريت يا خوانا ما رحتش لندن ولا باريس
دى بلاد تمدين ونضافة وذوق ولطافة وحاجة تغيظ
ما لقتش جدع متعافى وحافى وماشى يقشر خص
ولا شاب مشمرخ أفندى معاه عود خلفه ونازل مص
ولا لب أسمر وسودانى وحمص وانزل يا تقزقيز
حاتجن يا ريت يا خوانا ما رحتش لندن ولا باريس

وعندم عاد بيرم فى عام ١٩٣٨ متسللا إلى مصر بعد عشرين سنة بالمنفى أخذ يتحدث بلسان الفقراء والغلابة والبسطاء الكادحين ليل نهار دون جدوى ، حيث تتردى أحوالهم وتسوء يوما بعد يوم بينما يتاجر الآخرون بقوتهم ، فيقول على لسان العامل المصرى مثلا .

ليه أمشي حفيان — وأنا منبت مراكيبكم
ليه فرشي عريان — وأنا منجد مراتبكم
ليه بيتي خربان — وأنا نجار دواليبكم

هي كده قسمتي ؟
الله يحاسبكم

ساكنين علالي العتب — وأنا اللي بانيها
فارشين مفارش قصب — ناسج حواشيها
قانيين سواقي دهب — وأنا اللي أدور فيها

يارب ما هوش حسد
لكن بعاتبكم !!

من الصباح للمسا — والمطرقة فيدي
صابر على دي الأسا — حتى نهار عيدي
ابن السبيل انكسني — واسحب هرابيدي

تتعروا من مشيتي
وأخجل أخاطبكم

ليه تهدموني وأنا اللي — عزكم باني
أنا اللي فوق جسمكم — قطني وكتاني
أهلي نهار دفنتي — ما القيتش أكفاني

حتى الأسية وأنا راحل
وسايبكم

وحارب بيرم بقصائده النارية الإقطاع والامتيازات الأجنبية ، واستبداد العائلة المالكة والاحتلال الإنجليزى ولكن عظمة بيرم تكمن فى أنه لم يكن مصلحا سلبيا يطالب الآخرين برفع الظلم عن كاهل العرب بوجه عام والمصريين الذين يحيا بينهم على وجه الخصوص ، وإنما كان يعنف العرب ويزجرهم ، ويعاتبهم ليستنفز قواهم الكامنة ، ويستنهض هممهم المقعدة ، ويشعل فيهم نيران الثورة على أوضاعهم المزرية ، وبطبيعة الحال لم تكن قصائده تخلوا من التهكم والسخرية ، وخفة الظل التى تغلف كل أعماله الخالدة .

فقد كتب بيرم على سبيل المثال ينعى فيه على العرب خمولهم وتقاعسهم قائلا :

يـــامصرى وأنت اللى هـــا ممنى مـن دون الكل
هـــزيـل ويحسبك الجاهـل عيـــان بـــالسل
من دى الكيــــوف اللى تصبر على كتر الــــذل
ونمت والعــــالم فــــايق قــــوم بص وطـل
شـــوف الشعـــوب واتغص ودوب وارجع إنســـان

ولم يكن بيرم شاعرا محليا ، أو مصريا ، أو تونسيا فقط ، وإنما كان شاعرا قوميا التحم بقضايا أمته العربية فتناول حرب المغاربة ضد الأسبان وكتب عن زعيمهم عبد الكريم الخطابى .

وكما كان بيرم قوميا كان عالميا يتحدث بلسان الإنسانية جمعاء ، كتب عن الزعيم الهندى غاندى ، وهاجم حرق أمريكا للقمح ، وهناك شعوب تتضور جوعا ، وتغزل فى رشاقة اليابانيين .

وكتب بيرم روايات عدة فكتب شهر زاد ، ليلـة من ألف ليلة ، وعقلية
وبعد عودة بيرم لمصر ، أخذت أشعاره تترجم فى قالب غنائى رائع .

وقـد جمعت بيرم « فنـان الشعب » عـلاقـات خـاصـة بأشهـر مطـربى
ومطربات العصر ، فقـد كانت علاقته بأم كلثوم فى غايـة الظرف ، كان يص
على مناداتها بأسماء الـدلع ، وكانت هى تموت فى مـداعبته فكـانت تستقبل
بعبارات فكاهية ومزاح غير عادى .

وقـد كـتب بـيرم لكـوكب الشرق منهـا « كل الأحبـة » ، « أهل الهو
ياليل » ، « شمس الأصيل » ، و « الأولـة فى الغـرام » ، « أنـا فى انتظـارك »
و « القلب يعشق كل جميل » ، « فرحة هنية » .

وهكـذا كتب بيرم أكثر من ٣٢ أغنيـة لأم كلثـوم فكـانت بحق عامـ
رئيسيا فى توهج كوكب الشرق وارتفاع أسهمـه ، وتربعت هذه العملاقة عل
قمة الهرم الغنائى فى العالم .

وقد التقى أيضا بيرم بسيد درويش وكتب له أخر أوبريت « شهر زاد »
ورغم أن الأوبـريت مقتبس عن قصـة الأمـيرة التترية الجميلـة « شهر زاد
إلا أن بيرم حوله إلى رواية تفيض بمعانى المقاومة ، والكفاح وحب مصر .

وقد خاض الشاعر العظيم معركة أخرى ضد المرأة الشرقية المستسلمة
والتى لا تعرف شيئا خارج حـدود المطبخ والبيت وهاجم عاداتها المتخلفة
يقـول :

مـــا تمدغيـش للعيـــال الأكـل بأسنـــانك
والنفـخ فى الأكـل سـم فعـــــرض ايمانـك
إخيــــه عليكـى بقيتى خصلتـك ســـــودة

مــــا تسمعيش الكـــــلام تنشكى فى لســــانك
مــــــا تحسبيش مـن عمايلـك ربنـــــا يحبـك
بطن الـــــولـــد تـــوجعـــه والأكـل يتلبك
بعـــديـن يخستك قـــوى ويمـــوت بـــالعـــربى
قلـت اللى فيهــــــا بقـــــا وذنبك على جنبـك

وهكـذا كان بيرم عمـلاقـا عظيما فى شعره ، وفى مـواقفـه الوطنيـة ، وفى دعواته الإصـلاحية ، ومطالبته بالتحـرر من التبعية ، والتخلف ، والثورة على الاستعمار والإقطاع والامتيـازات وغيرها من مظـاهر الحيـاة السلبية فى مطلع القـــرن .

وهكـذا ظل بيرم حتى لفظ أنفـاسـه الأخيرة فى الخامس من ينايـر عـام ١٩٦١ مخلفا وراءه تراث شعرى خالد ، وملحمة نسج خيوطها رجل عظيم .

وإذا كان هذا هو بيرم الشعب ، بيرم الثورة ، بيرم السياسى ، والمصلح ، والمقاتل بالكلمة ، فقد كانت حياته وخـاصة طفولته ، وصباه ، وصدر شبابه ملحمة أو بطـولة مطلقـة بمعنى الكلمة ، وتعالـوا بنا نتعـرف عن قرب على الشقاء ، والعذاب ، والإرادة والتحـدى فى قصة نجاح فنان الشعب .

ولـد محمود بيرم التـونسى بحى السيـالـة أحـد الأحياء الشعبيـة الفقيرة بالإسكندرية فى ٢٣ مارس عام ١٨٩٣ فى أسرة أقل من متوسطة بكثير . كان أبوه يعمل بدكان صغير لم يكن يدر الكثير ، إلا أن هذا لم يمنعه من أن يبعث بـالصغير بيرم إلى كُتَّـاب الشيخ جـاد الله ، ولكن قســوة الشيخ وتجبره على صاحب السنوات الأربع من عمـره جعل صاحبنا يكره الكتـاب خاصة وأن الشيخ كـــان حـــاد المزاج سريع الغضب ينهـــال على صغـــاره بـــالكلمات والصفعات حتى لأتفه الأسباب .

ويحاول بيرم إقناع الأب بإخراجه من الكُتَّاب ، فيتلق عقابا أشد من عقاب الشيخ ، ويذهب بيرم إلى الشيخ دون فائدة ودون أن يتعلم شيئا ، وفى النهاية يسحب الأب الابن ويضعه فى المكان الذى يمتلكه .

وعقب خروج بيرم من الكُتَّاب ، وكان فى السابعة ، كشرت الحياة له عن أنيابها ، وخرجت إليه كما يعرفها الكبار ، معقدة ، مؤلمة ، ومضجعة .

فقد شهد بعينه موت شقيقته التى كانت تتفتح لتوها للحياة ، وانهارت حياة الأسرة الآمنة .

فقد اكتشفت أم بيرم أن أبيه تزوج فى السر من راقصة كانت تتردد عليه فى دكانه ، وأنه استأجر شقة لها فى حى الأزاريطة رغم علمه بسوء سمعتها فى الحى .

وأخذت الأم تجلس إلى الصغير فى المساء لتحدثه عن أصل جدوده التوانسة ، وعن أبيه المزواج الذى تعد هى زوجته الثانية ، والفنانة رقم ٣ فى القائمة .

وعرف بيرم الصغير أن جده لأبيه كان قد رحل من تونس إلى الإسكندرية بعد أن رفضت عائلته لأبيه الاعتراف بانتسابه إليها لحرمانه من مشاركتهم الميراث .

وبدأ الحزن يتسلل إلى قلب بيرم ، فانتحى جانبا وعزف عن مشاركة رفاق الطفولة ألعابهم المسلية ، ويحاول والده استئناف عملية تعليمه ، فيبعث به إلى مسجد المرسى أبو العباس حيث كان هناك معهد دينى .

ورغم أن بيرم بدأ يحب الدراسة ، ويرتبط بالمعهد ويحاول استعادة ما فاته ، إلا أن القدر كان له بالمرصاد ، فقد مات أبوه وهو نائم فى بيت الراقصة .

وأخذت تسرى فى الحى شائعات حول أن الأب لقى مصرعه بسبب سم بطىء دسته له الراقصة لتستولى على ثروته التى كان يحتفظ بها حول خصره فى حزام به مبالغ كبيرة .

ورحل الأب ووجـدت الأم نفسهـا عاجـزة حتى عن إيجاد رغيف خبـز للصغير بيرم وشقيقته من زوجة أبيه الأولى التى كـانت تعيش معهم بعد وفاة أمهـــا .

ومما زاد الطين بلة ، هو استيلاء أولاد عم الأب الميت على الدكان ، وأمام وطأة الفقـر ، وحـرارة الحاجة انقطع بيرم عـن الدراسـة وذهب يعمل صبيـا بدكـان بقالـة حتى يجد لأمه ولأخته ولنفسـه ما يسـدوا به رمقهم ، ويسترهم أمـام الناس ، ولأن بيرم الـذى لم يكن قـد تجـــاوز عامـــه الثانى عشر كـان شغوفـا بالغنـاء الشـــعبى والمواويل فقـد ترك ذات يـوم الدكـان ليذهب إلى مولـد « المرسى أبو العباس » ليُطرد مـن عمله ، وقال صاحب الـدكان لخال بيرم : هذا الولد لا يصلح إلا للعمل فى تياترو » .

وقد حـدث أن تعرف بيرم على أحـد البنائين من أصدقـاء خالـه ، وكان يحكى لـه القصص الشعبيه ، والحكـايات الفلكلـورية حتى بـدأ بيرم يعشق هـذه الحواديت ، وأخـذ يقتصـد من مصروفـه أو أجـرة يـومـه ليشترى كتب الأساطير الشعبيـة مثل « ألف ليلـة وليلة » و « أبـو زيد الهلالى » و « عنترة » وغـيرها .

ولم يكن بيرم يتحرر قليلا من آلامه وأحـزانه لرحيل والده ، حتى رحلت أمـه إلى بيت رجل آخـر تـزوجته وكـان قـريبـا لها ، واصطحب زوج الأم بيرم ليساعده فى صنع هوادج الجمال الذى كان متخصصا فى صنعها ؛ ولكن بيرم كان يموت كل يوم من كم وعبىء الأثقـال التى كان يحملها ويقول : إن هذه

المحنة خلقت لـه عضلات وأكتـافا جعلتـه قادرا على العمل الشـاق والحياة الصعبة عندما نفى خارج الوطن .

وبقى بيرم على هـذا النحو حتى مـاتت أمـه متأثرة بخُـرَّاج بصدرهـا ، وهكذا وجـد الصبى نفسه وحيـدا فى عام ١٩١٠ ، وشعـر بالضيـاع ؛ ولكنه استجمع قواه الصغيرة ، والتحق بدكان أبيه وكان عليه خلافات بعد استيلاء أقارب الأب عليه ، واضطروه هو وأخته التوقيع على بيع انصبتهما بملاليم .

وبهذه النقود القليلة اشترك بيرم مع أحد الصيادين فى دكان بقالة ، ومن خـلال الكتب التى كـان يقطعها للبيع فى ورقهـا تعـرف على ابن عـربى من خلال كتاباته الصوفية فأخذ يبحث عن أعماله وأعمال غيره كالمقريزى .

وبدأ بيرم يهتم بقضيـة الوطن ، ورفض أن يقف موقفا سلبيـا من الحركة الوطنية .

ووسط هذه الحياة المتلاطمة الأمواج أخذ قلب بيرم يضطرب ، وأخذت نفسه تتأرجح بين حيـاة الضياع والرغبـة فى الاستقرار ، ومن هنا بـدأت فكرة الزواج تراوده .

وبسبب الزواج والاهتمام الجارف بـالقراءة ، أفلس الدكـان بسبب عدم دفع الزبائن من أرباب الشكك (البيع بالأجل) للمستحق عليهم .

ويبيع بيرم بيت أمه المتواضع ليتاجر بثمنه القليل فى صفائح السمنة .

ومـا أن اتجـه بيرم لإصـدار الصحـف والشعـر والروايـة والأغـانى حـتى انتقل إلى حياة أخـرى ؛ ولكن لم تنقطع فيها صلتـه برجل الشـارع بل كانت كل حياته وسط العامة يتفاءل معهم ، يعلمهم ، ويتعلم منهم ، يقاتل معهم ، ويدافع عنهم .

وينجب بيرم بعد ست سنوات زواج ولدا أسماه « محمد » ، وبنتا أسماها « نعيمة » وذات يوم فقد بيرم زوجته التى لقيت مصرعها متأثرة بمرض التيفوس .

وتزوج بيرم مرة أخرى ليجد من يرعى الطفلين ولكن الزوجة الجديدة تتبرم منهما ، وتتعامل معهما بقسوة فبعث بهما إلى حماته .

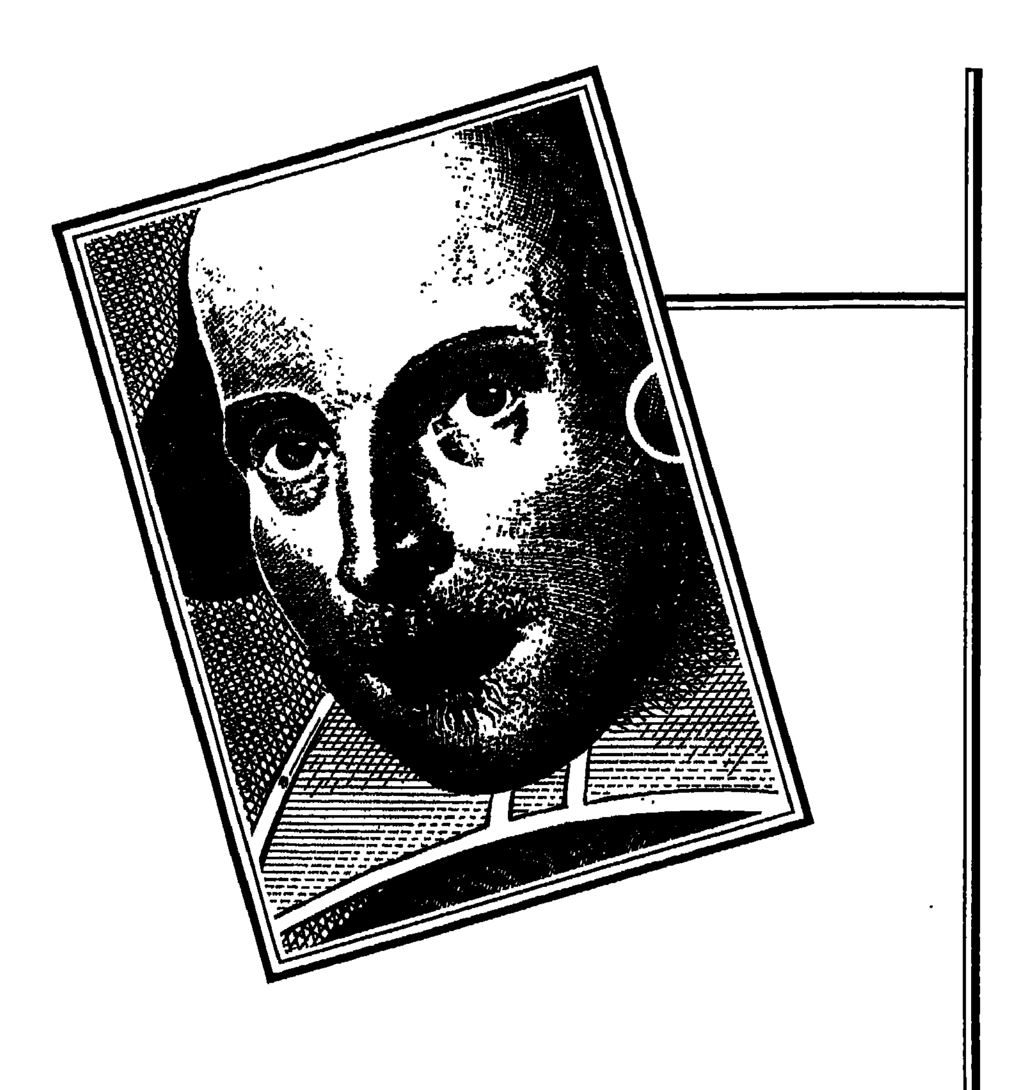
ويعود بيرم من منفاه ليجد امرأته تزوجت من غيره بعد أن حصلت على حكم بالطلاق منه .

ويعمل بيرم بعدة صحف كجريدة « الزمان » و « أخبار اليوم » ويصدر كتبه الواحد تلو الآخر حاملا كل الصور الساخرة فى مجتمعنا بطريقة تجعله أقرب إلى الجراح الماهر الذى يمسك با لمشرط ليقدم من خلال الميكرسكوب (قلمه) شرائح دقيقة تحمل كل ما يجرى فيه ، وما يحيط به من سلبيات وعيوب .

ويعود بيرم إلى زوجته السابقة بعد طلاقها من الرجل الذى كانت قد تركته من أجله إبان وجوده فى منفاه وأنجب منها ، ولدين ، وبعد ما يتسلم بيرم جائزة الدولة التقديرية فى عام ١٩٦٠ تقديرا لكفاحه فى مجالى الأدب والفن تشتد عليه وطأة مرض الربو الذى كانت أعراضه قد ظهرت عليه فى أوائل عام ١٩٥٤ .

وفى عام ١٩٦١ يرحل بيرم العظيم متأثرا بمرضه الذى لم تفلح معه جميع محاولات الأطباء ، ليسدل الستار على حياة عملاق عظيم ترك تراثا خالدا ، وقيما فنية شامخة ؛ رغم أنه لم يكن قد بدأ حياته إلا من تحت الصفر !!

□○□○□



وليام شكسبير

عبقرية تجاوزت حدد الزمان والمكان !



لا يـذكر التـاريخ أن أديبا ذاع صيتـه ، وبلغت شهرتـه الآفاق ، وكـان مشـارا لحديث الناس فى شتى أنحـاء المعمورة ، كما كـان عليه الحال مع هـذا العبقرى الفذ . ولا يمكن أبدا أن يذكـر مؤرخو الأدب العالمى العصر الذى عاش فيه إلا ويضيفون إليه اسمه حتى يميزوه عما سواه من عصور .

وقد بلغت عظمـة هذا العملاق المبـدع أوجها إلى الـدرجة التى أصبح فيها شعب كالشعب الهندى مثلا يقبل على أعمالـه بشغف ، ويرتبط بإنتاجه الرائع بنفس القدر الذى نجده لدى الشعب الإنجليزى الذى ينتمى إليه .

هذا هو وليام شكسبير أعظم أدباء العالم وأكثرهم خلودا على مر التاريخ الإنسـانـى كلـه ؛ وقـد طغت شهـرة هـذا الـرجل حتى على جميع الملـوك والسلاطين والأبـاطرة الذين صـالوا وجالـوا ، وقطعوا الأرض شرقا وغـربا .. شمالا وجنوبا .

وإذا ما قمنـا باستثناء الـرسل والأنبياء من أصحـاب الأديان الكبرى . فليس فى أصحـاب الأقلام منذ كتب الإنسـان بالقلم من يضـاهى شكسبير عبقرية أو عظمة .

كان شكسبير شاعرا مسرحيا فذا، وممثلا ومؤلفا ، ولم يجد التاريخ بمثله، رغم نشأته المتواضعة وبيئته الفقيرة ، وقسوة ظروف حياته ، التى كان يمكنها أن تسقط أى إنسان عن ظهر الحياة ، وتلقى به بعيدا عن دائرة الضوء !

وقـدم شكسبير للإنسـانية مسرحـا ليس لـه مثيل ، فقد كـان أعظم من يقـدم أفكارا خـالدة تعبر عن النفس البشريـة فى شموخهـا وسقوطهـا ، وفى

سموها ، وفى انحطاطها حتيأأننا عندما نراها اليوم بعد خمسة قرون من الزمان نشعر أن الرجل يحيا بيننا ، ويستمد أفكاره من همومنا ومشكلاتنا !

ترك العملاق الخلاق تراثا إنسانيا رائعا قوامه ثمانية وثلاثين مسرحية وأكثر من ١٥٤ قصيدة لطالما كان الناس يقتبسون منها جملا مأثورة ، وأقوالا حكيمة ، يستعينون بها عندما يبغون تلخيصا لموقف إنسانى أو سلوك بشرى ، أو غريزة فطرية ، أو خصلة مكتسبة من البيئة والظروف المحيطة .

ورغم من أن شكسبير كان يكتب بالإنجليزية فأعماله موجودة فى كل لغات العالم ، وظهرت على كل المسارح دون استثناء . ورغم رحيل هذا الأديب الكبير منذ أكثر من ٤٠٠ سنة إلا أن دارسى المسرح وباحثيه لا يزالون يكتشفون كنوز عظمته ، كما أن الشعوب لا تزال تقبل بنهم على روائعه الخالدة .

وقد ولد شكسبير فى عام ألف وخمسمائة وأربعة وستين فى أسرة ريفية بسيطة ، لم تهتم جيدا بتعليمه فى طفولته اللهم إلا مدرسة متواضعة زجوا به فيها لتعلم القراءة والكتابة . وظل شكسبير يدرس فيها حتى حلت ضائقة مالية بأبيه تركها على أثرها وأخذ يعمل مع أبيه حتى بلغ الثامنة عشرة فزوجه بـ « آن » التى كانت تكبره بثمانى سنوات لينجب منها « سوسن » ، وتوأمين هما ذكر وأنثى هما هامت وجوديث .

وبعد أن إتسعت مسئوليات شكسبير ، وتعاظمت متطلباته ، أصبح لزاما عليه أن يبحث عن مورد للرزق غير ما يتقاضاه من عمله مع أبيه الذى صار قليلا مضطربا لا يستقر ولا يثبت على حال .

ولما كان شكسبير قد وجد فى نفسه قدرة على التأليف والتمثيل المسرحى ، ظلت معه منذ الطفولة ونمت وكبرت أثناء عمله المتواضع مع أبيه ، فقد قرر أن يتجه وجهة أخرى ، ويغير مجرى حياته .

شد شكسبير الرحال إلى لندن ، وأخذ يقدم نفسه كممثل أولا ، وبعد تعثر وفشل متكرر أُسنِدَت إليه عدة أدوار صغيرة حتى عمل فى أكبر الفرق المسرحية فى بلاده ، وهى فرقة « الإيرل أوف لسيستر » التى أباحت الملكة « إليا صابات » إقامة المسارح فى العاصمة من أجلها .

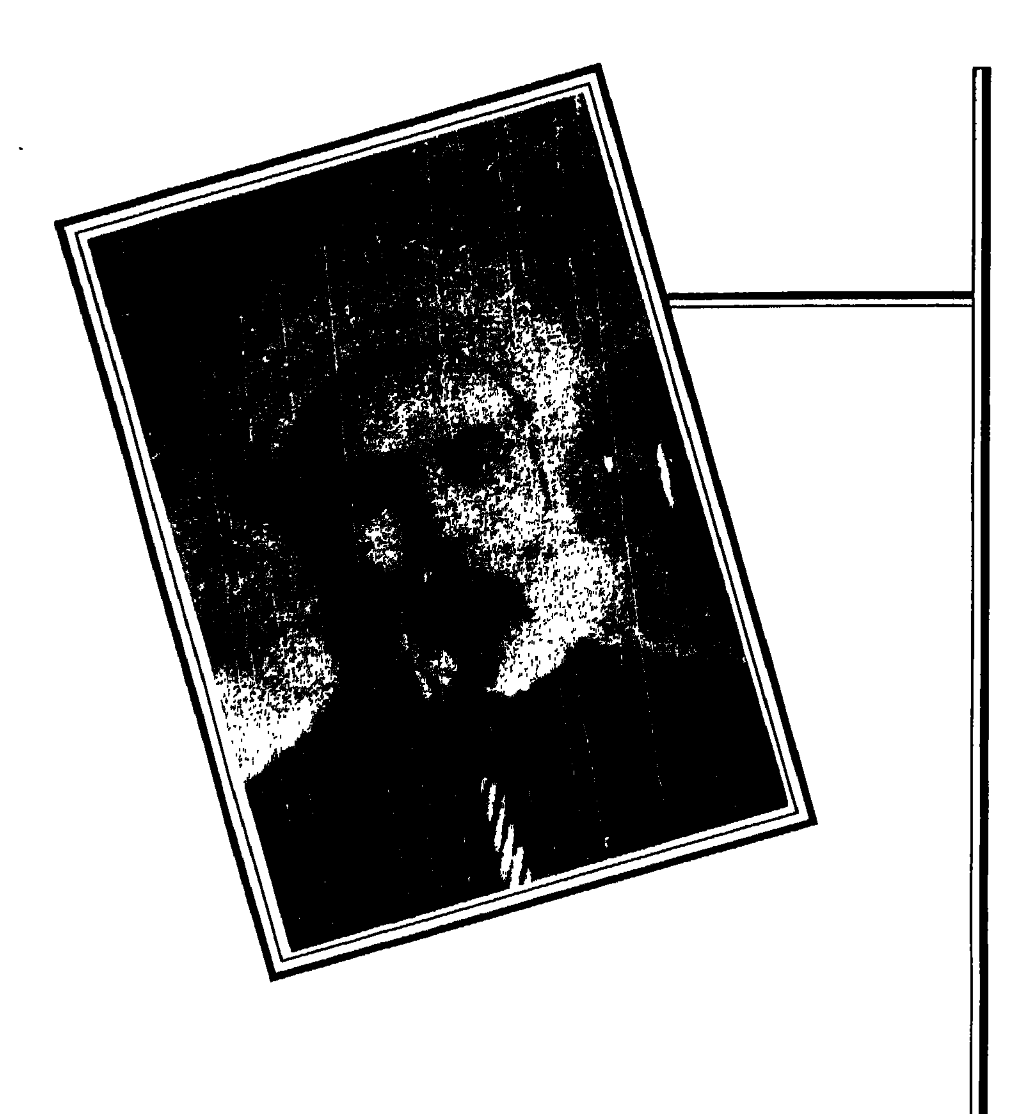
ومن هنا بدأ شكسبير رحلة مع المجد ؛ فقد ظهرت عبقريته واضحة ، جلية ، فألف أعماله المسرحية الخالدة مثل « حلم منتصف ليلة صيف » ، « هاملت » ، « عطيل » ، « ماكبث » ، « الملك لير » ، « تاجر البندقية » ، « هنرى الرابع » ، « روميو وجوليت » ، « يوليوس قيصر » ، « أنطونيو وكليوباترا » ، « العاصفة » ، « هنرى الخامس » ، « كما تحب » ، « زوجات وندسور » ، « هنرى الثامن » ، « ترويض النمرة » ، « الليلة الثانية عشرة » وغيرها من رائعات المسرح المجيدة .

هذا هو شكسبير أعظم رجال المسرح والأدب فى التاريخ الذى كانت عظمته وعبقريته واضحة فى القيام بعملية خلق فنى للطبيعة الإنسانية وليس مجرد تصوير لها أو تعبير عنها .

فقد كان خلق الشخصية فى عالم الفن هو رسالة شكسبير .. خلق الشخصية .. شخصية الإنسان فى طبيعته المتنوعة المتقبلة حيثما كان وكيفما كان .. مئات الرجال والنساء والأطفال فى كل سن ، ومن كل مزاج ، وعلى أية حالة ، فى كل طبقة تجمعهم مسرحيات شكسبير .

فقـد كـــانت تضـم الطيب و الخبيث ، الصريح والغــامض ، السعيـد والحزين ، الطـامع والقـانع ، العظيم والحقير . لقـد كـانت عظمـة شكسبير تكمن فى كون مسرحياته لا تنقضى مع نزول الستار ، وإنما تبقى طويلا لمئات السنين نلتقى بها ، ننفعل معها ، وتستمتع بها كما لـو كانت جديـدة ، تعرض لتوها !!

□○□○□



الإمام محمد عبده

زعيم الإصلاح الفكرى والدينى

كـان يمكن أن ينتهى مصير الغـلام الصغير كما آل إليــه مصـــير بقيـة أخوتـه ، وكان يمكن أن يفقـد الفكر العـربى أحد زعماء الإصـلاح ، وقادة التنويـر العظام الذين لا يزالـوا يمثلون نبعا لا ينضب معينه - فعـلا - كان يمكن أن نفقـــد ثروة بشرية هائلـة لولا أن شـعر الأب الذى هزمه الفقـر ، أن ابنه لـديه ما يبعث على الاعتقـاد بأن حرمانـه من العـلم جريمـة فى حـق هـذا العـالم .

فقـد وجـد الأب أنـه حتى بـالنسبة لأب مثلـه يقـاسى ويـلات العـوز والحاجة ، فى عصر لا يرحم الفقراء ، والضعفـاء ، لا ينبغى تجاهل ذكاء غلام كهذا ، يشهد كل من يراه بأنه سيكون نابغة عصره .

وبعـد تفكير عميق ، اهتـدى الأب إلى قـــرار لم يتخـذه من قبل ؛ بل لم يحاول التفكير فيـه . لابـــد أن يضحى بكل شىء ، ويتحمل كـل الصعـاب حتى ينتـزع الصغير البرئ من بـراثن الجهل ، ويضىء جنبـات حياتـه بنـور العـــلم !

هكذا كانـت البداية الحقيقية المبكرة لـلإمام محمد عبده الـذى يعد من أكبر المفكرين والمصلحين فى تـاريخنا العربى والإسـلامى كله ، ذلك الشيخ الجليل الذى لعب دور القائد الملهم ، والعالم البصير ، والمثقف المستنير .

فقد وُلِدَ محمـد عبده لأبٍ فلاح بالكـاد يجد قوت يومه . هـذا الفلاح لم يجد مفرا من أن يدفع بجميع أبنائه إلى الأرض يـزرعون ويحرثون . إنه لم يفكر حتى فى تعليمهم ، فقد كانت إمكانياته لا تُـذْكَر ، بل كان أحيانا يضطر إلى الاستدانه لكى يجد ما يسد به رمق أسرته الكبيرة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وعندمـا رزقه الله بابنه محمـد فى عام ١٨٤٥ حلت البركة بـالبيت وش
الجميع بأن هناك شيئا ما تغير فى المنـزل ، لقد كان قدوم الصغير «وش الـ
مبعثـاً للسعـادة وعمت البيت الفـرحـة ، وأحست الأسرة بأن الله قـدم إلي
هدية عظيمة .

ومنذ اللحظة الأولى التى بدأ فيها محمـد عبده يشب عن الطوق ، بدأ
معالم نبوغه تظهر ، وأخذ ذكاؤه الحاد يظهـر بجلاء ، أما ميله للتعلم فقد ك
فطريا ، ولا يقف عنه أى حد .

ويبدو أن الفلاح المصرى الأصيل قد أدرك بفطرته أن ابنه يعد بالكثير
فقرر أن يدفعه إلى الطريق الذى يظهر فيه مـواهبه ، فدفع به إلى كُتَّـاب قر
« محلة نصر » بمحـافظة الغربيـة حتى يُعَدُّ لما هـو أكبر بكثير . وحفظ الغا
القـرآن على يد الشيخ ولكن كـان هذا هـو كل مـا يمكن الحصول عليـه ،
الشيخ .

وقـد حاول الغـلام أن يستـوعب دروس شيخـه الفقهيـة المتواضعـة
الكتاب ، ولما وجد الأب أن قدرات ابنـه - كما يبلغه بذلك بعض المشايخ
أكبر بعث به إلى الجامع الأحمدى بطنطا يمضى هناك ثلاث سنوات ، ثم نة
بعد ذلك إلى الجامع الأزهر .

وبين أحضان الأزهر تفتحت مدارك الصغير وأخـذ العلم يهز وجدان
ويزلزل كل كيانه ولكن طـريقة التعليم هناك لم تكن تُعجب الغلام ، فقض
عـامين لم يستفد منهما الكثير على أيـدى معلميـه من الشيوخ ، ولكنـه أدر
قيمة العلم وقرر البحث عن مخرج من هذا المأزق .

وما أن فكر محمـد عبده مليًّا فى مشكلته حتى وجد أنـه ليس هناك مفر من تلقى العلم بنفسه ولنفسه فابتدع إسلـوبا فى المطالعة والتحصيل ، وأخذ يستلذ بما يقرأه ، فاستعذب العلم ، فمضى يجمـع منه كل ما تصل يده إليه ، وهكذا بلغ محمد عبده مدى طويلا فى ارتشـافه من بحر العلوم ، وأحرز منها جانبا كبيرا كان ذخيرته وعدتـه فيما بعد ، وقد تزوج محمد عبده فى تلك الفترة وقبل أن يصـل العشرين من عمـــره ، حتـى لا ينشغل عن تحصيـل العلم والدين وقد كان الأب وراء هذا القرار خاصة وأن الله قد مَنَّ عليه ، ووسع من رزقـه ، فقـال لنفسـه : لماذا لا أرعى الفتـى مـا دام مجتهـدا ويعـد بـالكثير ، وبالفعل استقرت نفسية الفتى وواصل اغترافه من العلم .

وقـد عمل محمـد عبـده إلى جانـب الأزهر فى عـدة أعمال كـالتـدريس والترجمة ، وظل كـذلـك حتى وفـد إلى مصر المفكـر العظيـم « جمال الـدين الأفغـانى » فيلسوف الإسـلام وتولى هـذا الـوافد العمـلاق تدريس المنطقـة والفلسفة فانخـرط محمد عبده فى سلك تلامـذته الذين كانـوا يضمون نوابغ المصريين .

وقد أظهر محمد عبده أمام الأفغـانى قدرات عظيمة ، وأفكاراً إصلاحية رائعة ، وعقلية مرتبة ومنظمه ، وإحساسـا وطنيا مرتفعا ، كما كان محمد عبده أقرب تـلاميذ الأفغانى وألصقهم بـه ، وأكثرهم قـدرة على مباراته ، وعنـدما أُبعِـدَّ الأفغانى من مـــصر قال يـوم وداعه : « قـد تركت فيكم الشيخ محمـد عبـده ، وكفى بـه لمصر عـالما » ومن هنـا بـدأت رحلة جهـاد محمـد عبـده ، وكفـاحه ، فأخـذ يكتب فى الصحف بجرأة وصراحـة عظيمة ، وتقلـد بعض المنـاصب العلميـة : بين تدريـس فى المدارس الأميرية وتحريـر فى صحيفـة

الوقـائع المصرية ، وكتابـة فى الدوائر الرسميـة حتى قامت ثـورة الزعيم أحمد عرابى ضد الخديوى توفيق .

وفى بداية الثـورة كان لمحمد عبده الذى اشترك فيهـا اشتراكا فعليا آراء بناءة فقد قصر بعض مقالاته على الـدعوة إلى إصلاح التعليم ، ومنح الفرصة لجموع الشعب ، وطالب عرابى بالتركيز على التربية والتعليم قبل التركيز على الثورة ، وقـد بدأ محمدعبـده مع ثورة عرابى ثـورته الإصلاحيـة العظيمة التى تركـزت حول الدعـوة إلى تحرير الفكر الإسـلامى والعربى من قيود التقـاليد ومنهم الـدين على طـريق سلف الأمـة ، واعتبـاره من ضمن مـوازين العقل البشرى ، وتمييز النـاس وبصفة خاصـة المحكومين بين ما للحكـومة من حق الطاعة على الشعب .. وما للشعب من حق العدالة على الحكومة .

وجهر محمد عبده بدعوته الإصلاحية ، ولم يخش بطش الاستبداد ، الذى كان فى عنفـوانه ، وقمة جبروتـه وظلمه ، كما هاجم مشـايخ الأزهر ، وحملهم مسئـولية تـراجع الدين الحنيف ، وانتشـار الأفكار الهدامـة ، والمتطرفـة التى تبتعد عـن روح الدين الحنيف ، وكما حمل لـواء الإصلاح السياسـى حمل لواء الإصلاح الدينى .

وعندما إحتل الإنجليز مصر ، أدركوا أن محمد عبده قائد ثورى ، وليس مجرد مصلح دينى وسياسى ، وعندما أفتى الإمـام الشيخ بعزل الخديوى وطرد المحتل الإنجليزى الغاصب من مصر ، ألقى القبض عليـه ، وتم نفيه خارج البـلاد ، فذهب إلى سـوريا ثم إلى بـاريس ليلتقى من جـديد بأستـاذه جمال الـدين الأفغـانى ، وفى بـاريس ، أنشأ الأفغانـى وتلميذه النجيب العـلامـة والنابغـة محمد عبـده جريـدة « العروة الـوثقى » وعهـد إلى التلميذ بتحـرير الصحيفـة الذى كـان لسان حـال المصلحين والثوريين والمدافع عن الـوطن

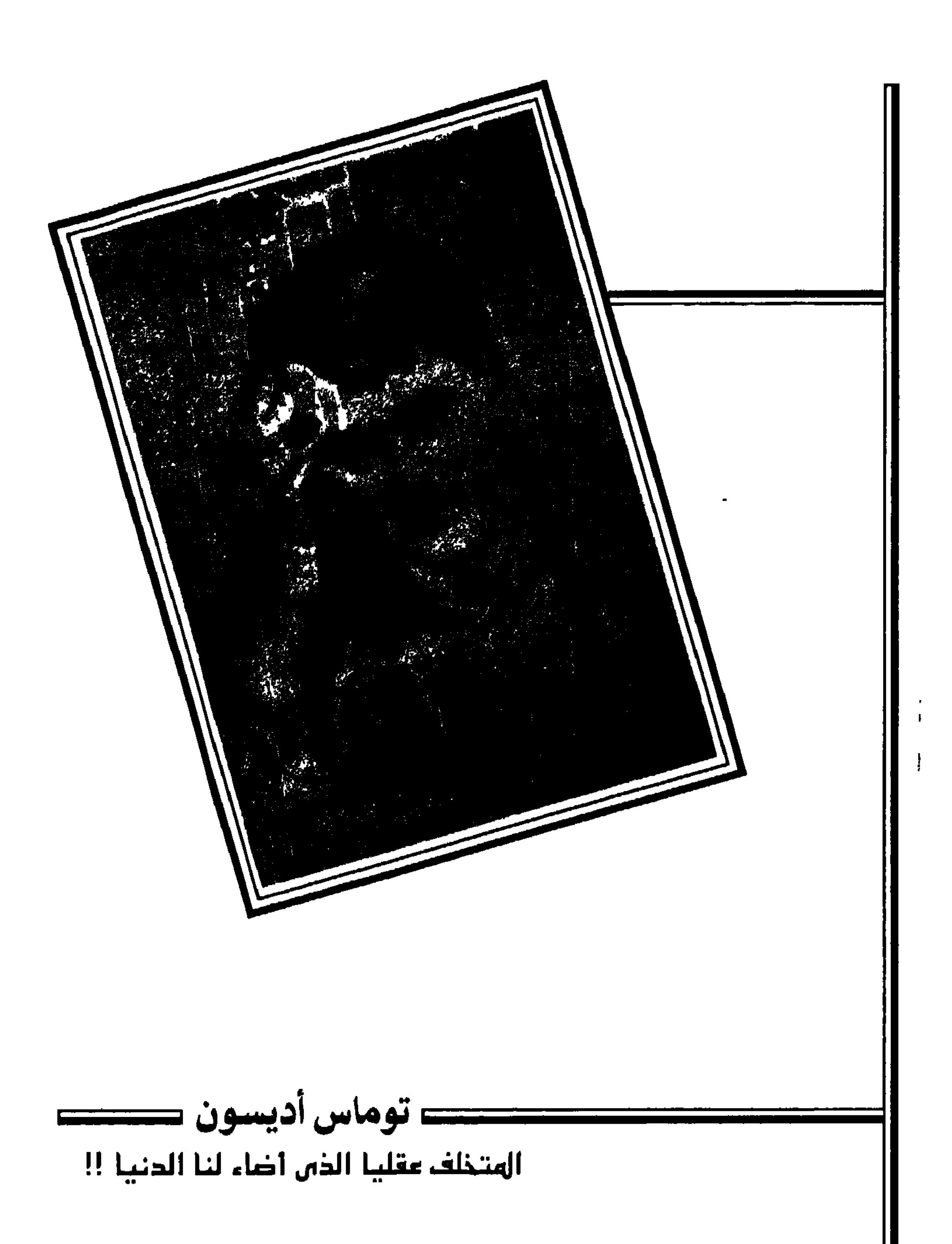
العـربى المحتل ، وحقوق أبنـائه وفى بـاريس أيضـا ، اطلع محمد عبـده على التمدن والتحدث ، وتعلم الفرنسية وقرأ المزيد عن الفلسفة والقانون .

وما أن عاد محمد عبده إلى مصر بعد صدور العفو عنه ، عهد إليه بتولى القضاء ، فَعُيّن مستشارا فى محكمة الاستئناف ، وعضوا فى مجلس إدارة الأزهر ثم « مفتى عام للـديار المصريـة » ، وكانت فتواه نـارا حارقـة ضد الاستعمار والقصر ، وظل بـا لمنصـب حتى لقى ربـه فى الحادى عشر من يـوليـو عـام ١٩٠٥ متأثرا بخيبة أملـه فى إصلاح الأزهر ، والمقاومـة العنيفة التى واجهها من جانب الخديـوى والإنجليز والمشايخ غير الشرفـاء لدعوته الإصـلاحية ، وكتب أبيات شعر قبيل وفاته مباشرة تعبر عن هذا قال فيها :

ولست أُبـالى أن يُقـال محمـد
أبلى أم اكتظـت عليـه المآثـم
ولكنـه دين أردت إصـلاحـه
أحـاذر أن تقضـى عليـه العمائم

وهكـذا رحل الإمام محمـد عبـده ابن الفلاح الفقير الـذى أصبح زعيما للنهضة الإصلاحية الجميلة التى لا تزهق أرواحا ، ولا ترق دماءً ، نهضة مبنية على الفكـر ، والهِدايَّـة ، والاستنارة ، وإصـلاح التعليم ، وتنقيـة الـدين من شوائبه التى دخلت عليه ، لقد حاول محمد عبده التوفيق بين الإسلام والمدنية الحاضرة بالتحرر من القيود السخيفـة ، والفكر المتخلف ، والتطرف الدينى ، والتعنت الفكرى الذى يصد أبواب الاجتهاد .

□○□○□



توماس أديسون

المتخلف عقليا الذى أضاء لنا الدنيا !!

لم يمض على دخول الصغير تـوماس المدرسة ثلاثـة شهور فقط ، حتى قرر الناظر ، والمدرسون طرده وعدم السماح له ثـانية بالدخول ، أما حيثيات مثل هذا الحكم الشديـد القسوة ؛ فقد كان على حـد تعبير الناظر .. « الطفل بليد ، ومتخلف عقليا » !!

وبعد أن كـان أمام الصغير فـرصة للتعلم والتسلح بها يـواجه بـه مرارة الحاجة ، وشر السؤال - فيما بعد - عنـدما يكبر تلاشى الأمل ، وأصبح عليه أن يصارع الحيـاة فى سنه المبكـرة ، لا سيما وأن أسرته فقيرة بـالكاد تجد قـوته يومهـــا ! .

هكذا كان حال تـوماس أديسون الفاشـــل الذى أضـــاء لنـــا الدنيا ، ولا يدرى سـوى الله ماذا عسانا أن نفعل لـو لم يكن لدينا المصبـاح الكهربى الذى اخترعه من بين ألف اختراع سجلهم باسمه .

ورغم البداية المفجعة التى كان يمكن أن تقضى على الصغير فى مهده ، وتدفعه إلى طى النسيـان ، إلا أنه لم يأبه بما حدث ؛ بل إنـه لم ينزعج للعقاب الجسمانى والنفسى المؤلم الـذى تعـرض لـه من جـانب والـديـه . لقـد كـان لتوماس رباطة جأش رجل بالغ ، وقلب أسد ، وعقلية عبقرى .

ويبدو أن هناك عـلاقة متبادلة بين العبقرية والجنـون ، هذا هو التفسير الـوحيد لقـرار فصل هـذا العبقرى لاتهامـه بـالتخلف العقلى . فـالعبقريـة كالجنون هى خـروج عن المألوف ، ولحظة الخلق والإبداع هـى لحظة انفصال عن الواقع والتحليق فى عالم خاص له حسـابات لا يعرفه إلا يمارس العبقرية والخلق والإبداع .

ويقول أديسون فى مذكراته : إنه كان يكره المدرسة لأن المدرسين يلقنون التلاميذ العلوم تلقينا ولا يسمحون لهم حتى برواية المعلومات على طريقتهم .. إنهم يحرمونهم من أبسط حقوقهم المشروعة فى إختفاء نوع من الذاتية أو الخصوصية على ما يخرجونه من جعبتهم .

ويقول : إن الشكاوى الكثيرة من عدم تركيزه وانشغاله عما يقوله مدرسوه ، كان يقابله دائما .. «علقة ساخنة» فى البيت حتى إنه كره المدرسة والبيت معا .

وبعد ما ترك أديسون الدراسة ، عمل بأكثر من مكان ، فتارة هو صبى ميكانيكى ، وتارة لدى نجار ، وما أن شب وكبر ، وبلغ الثانية عشرة حتى بدأ يعمل على خط قطار يربط بين المقاطعات التى تقع شمال وجنوب مدينة ميلانو بولاية أوهايو التى ولد ونما فيها .

وحاول أديسون الاستفادة من مواهبه ، وأخذ يفكر كيف يبتكر ، وكيف يخترع ، وفى القطار كان يصدر صحيفة ويطبعها فيه ، ويتلقى أخباره عند الوقوف بكل محطة ، ثم أنشأ معملا بالقطار ضمن أجهزه ومعدات ومواد كيميائيه وذات مرة كاد يتسبب فى حريق هائل بالقطار .

وما أن خطا أديسون عامه الحادى والعشرين حتى ابتدع جهازا كهربائيا لتسجيل الأصوات فى الانتخابات ، ولكن لم يجد إقبالا على شرائه ، وكان فى أمس الحاجة إلى أموال كثيرة حتى يمول اختراعاته التى كانت تتطلب المواد الخام والمعدات ، وغيرها ، ناهيك عن تدبير ما يقيه الجوع والبرد القارس .

ولأن أديسون حاد الذكاء ، متوقد الذهن ، عظيم الفكر ، فقد اهتدى إلى قرار مؤداه أن البداية لابد أن تكون من خلال اختراع شىء لا يجد الناس مفرا من شرائه ، وبمبلغ كبير يؤدى الغرض .

وبالفعل تمكن المخترع الصغير من ابتكار جهاز رائع لصرف تذاكر القطارات ، وباعه فى عام ١٨٦٨ بمبلغ خيالى قدره أربعين ألف دولار ، ومن هنا بدأ نجمه يبزغ ، ويعرفه العالم كأعظم مخترعى عصره .

وإذا كان جهاز صرف تذاكر القطارات الذى طُبِعَ عليه اسم أديسون قد عرفه إلى العالم كله ، فإن اختراعا آخر جعله أكثر شهرة وثراء ، وهو « الفونوغراف » الذى سجله باسمه فى عام ١٨٧٧ .

وما هى سنتان حتى هز أديسون العالم كله بأعظم اختراع عرفته البشرية ، والذى لا نزال جميعا ننعم به ، كما ستنعم به الأجيال التى ستأتى بعدنا .. إنه « المصباح الكهربائى » ، الذى جعله أديسون بنظام توزيع كهربائى اختراعاً يدخل البيوت .

وفى عام ١٨٨٢ ، أسس صاحبنا العبقرى الذى لم يتجاوز الخامسة والثلاثين من عمره شركة باسمه تولت إنتاج الكهرباء لمدينة نيويورك ، ومنها انتشرت الكهرباء فى أمريكا وباقى أنحاء العالم .

وتزوج أديسون الذى أصبح أغنى وأشهر وأعظم مخترع فى العالم من سيدة من أسرة متوسطة الحال أنجب منها ثلاثة أطفال خلال سنوات قليلة من زواجهما ثم رحلت عنه فجأة دون سابق إنذار ليتوقف فترة عن مواصلة نجاحه ونجاح البشرية .

وتزوج أديسون للمرة الثانية ، وكما كان الحال مع امرأته الأولى أنجب أيضا ثلاثة أطفال وبدأ مع استقراره الثانى يعود إلى تقديم خدماته إلى الإنسانيه المعذبه !

فقـد عمل أديسـون على تطـوير كـاميرات السينما ، وسـاهم فى عمليـ اختراع التليفـون ، حيث ابتكر الكـاربون الـذى ينقل الصوت ، وسـاهـم ف اختراع أجهزة كثيرة كالتلغراف ، والآلة الكاتبـة وهو الذى اخترع البطاريات الجافة والميكروفونات .

وقد اخترع أديسون أيضا المصابيح الكهربائية بعد ما اكتشف أنه داخل فراغ يمكن أن تتحرك الكهرباء بين سلكين دون أن يتصلا .

كما وضع أديسون العظيم أسس صنـاعة الإلكترونـات . وأصبح شريك فى عدد كبير من الشركات الصناعية ، ومن أهمها شركة جنرال اليكتريك .

وهكذا استطاع الولـد الشقى ، والتلميذ الفاشل (المتخلف عقليا) كم اتهمه مدرسـوه ، أن يضىء لنا الدنيا ، ويسجل اسمـه بين الخالدين فى شتى مجالات الحياة كأكبر عبقرية عرفها التـاريخ حيث إن العالم يشهد مخترعا قد مثل هـذا الكم الهائل من الاختراعـات الـرائعة خـلال سنـوات عمـره التى امتدت أربعة وثمانية عاما بين ١٨٤٧ - ١٩٣١ .

□○□○□



عبد الله النديم

عامل التلغراف أعظم خطباء عصره

كـان سيد المنـابر ، وأعظـم فرسـان الكلمة فى عصره . كـان إذا تحدث أضرم نـاراً ، وأشعل ثـورة ، وكانت حيـاته سلسلة متصلـة الحلقـات من الكفـاح الـذى لا ينقطع ، والجهـاد الـذى لا يتـوقف ، والـروح الـوطنيـة المتأججة ، التى لا تعرف اللين ، أو الاستسلام .

هكذا كان عبد الله النديم خطيب الثورة العرابية ولسانها الناطق ، الذى لم يكن هو نفسـه سوى ثورة مضطـرمة دائمـة ، حتى عندما هـدأت الثورة ، وسكن الثوار ، واستسلمـوا للأمر الواقع ، رفض الخضـوع والاذعان ، ومضى فى ثورته يحث الناس على مقاومة الظلم ، ويحرضهم على قتال الظالم .

ولم يكن عبـد الله النديم مجرد خطيب وسيـاسى ، وإنما كان أديبـا عظيما يملك ناصيـة البيان ، يقـرض الشعر ، فيبدع فى نظمـه ، ويخط النثر فيبرع فى كتـابته ، وقـد كـان بحق علماً من أعـلام السياسـة والأدب فى عصره وفى كل العصـــور .

وقد كان للنديم معركة أخرى فى طفولته وصدر شبابه ، حيث كان عليه أن يبدأ من تحت الصفر حتى يبلغ ما وصل إليـه من مجد وشهرة ومكانة بارزة فى تاريخنا .

فقد وُلِـدَ النديم فى أسرة فقيرة بـالكاد تشق طـريقها فى مجتمع لا يـرحم الفقـراء ، ولا يحترم سـوى كان يملـك سلطان الأهل أو المـــال . كـان أبـوه واسمه « مصبـــاح إبراهيـــم الإدريسى » نجـاراً بـــدار صنـــاعة السـفـن فى مدينـــة « الإسكنـدريـة » التى نزح إليهـــا فى شـبابه من « الشرقيـــة »

مسـقط رأسه . وبعد فترة من الزمن افتتـح أبوه مخبزا صغيرا كفل له الكفاف من العيش .

وعندمـا رُزِقَ الأب بابنه « عبـد الله » توسم فيه الكثير ، وتمنى لـه ، ما لم تسمح له بـه الظروف ، فقـد كان يريـد لابنه مستقبلا أفضـل مما كـان عليه الحـال معـه .

وقد سـاعد الأب على ذلـك ما أظهره الطفـل فى أيامـه الأولى « بكُتَّاب الحى » من نبـوغ ، وحب للعلم ، والتحصيل ، ومقـدرة على حفظ القـرآن الكريم كله قبل بلوغه التاسعة من عمره .

ولأن عبد الله النـديم كان صبيا واعـداً يبشر بالكثير ، فقد أدخلـه والده معهـد « الجامع الأنـور » الذى أنشأه الشيخ إبـراهيم بـاشـا بـالإسكندريـة لدراسة علوم الدين واللغة على غرار ما يجرى بالأزهر الشريف .

وبعد سنوات من العلم والتحصيل على أيـدى كبار المشايخ والعلماء ، أحس النديم بأنه حصل من المعارف والعلوم ما يكفيه ، وأن المعهد لن يقدم له المزيد ، وشعر بالضيق لجفـاف الدراسة ، فهرب من المعهد ، وذهـب يتردد على مجالس الأدب والأدباء .

ومن هنـا أخذت مـواهب النديم ، وقـدرته الفـائقة على نظم الشعـر ، وإلقـائه تظهر جليـة واضحـة ، وذاع صيتـه ، وأصبح أحـد نجـوم الساحـة الأدبيـة ، يجالس عمالقة الأدب ، وينـادم الكبراء ، وينطلق لسـانـه بالشعـر والزجل والنوادر والفكاهات .

وأخذ النديم يتجول بين أرجاء البلاد حيـث قضى قرابة عام ينزل ضيفاً على العمد والأعيان الـذين كانوا يحتفون به لما لـديه من أدب وشعر وقصص

وأحاديث جـذابة مسليـة ، وعاد النديم من رحـلاته وهـو يحمل هذا اللقب الذى أضيف إلى « عبد الله » بقية حياته .

وعندما عاد صاحبنا إلى الإسكنـدرية ولم يكن قد بلغ الثامنة عشر بعد ، تعلم منه فن إرسال الإشارات التلغرافية ليلتحق بعد ذلك بمكتب التلغراف المحلى ، ثم مكتب تلغراف القصر العـالى حيث كانت تقيم والـدة الخديوى إسماعيل .

وما أن استقر النـديم بالقاهرة ، أخـذ يستأنف تردده على مجالس الأدب والأدباء ، كما بدأ يحضر دروساً لكبار العلماء فى الأزهر .

وفى هـذه المجالس تعـرف النـديم على محمود سـامى البـارودى شاعـر السيف والقلـم ، وعندما وصل جمال الدين الأفغانى إلى مصر فى ذلك الوقت لينشد آراءه الثورية لتحرير الأمـة الإسلامية من العبودية والاستعمار ، اتصل به النديم وأصبح من أبرز تلامذته .

وقد كان لتعـاليم الأفغانى وآرائه أثراً بالغاً فى توجيـه النديم إلى الثورة ، خاصة وأن النـــديم كان يرى مدى الظـلم والذل والهـــوان الذى يتعرض له الشعب .

وقدألهب أيضا حماسه إحساسه هو نفســه بالظـــلم عندما غضب عليه « خليل أغـا » كبير أغـوات القصر العالى ، وصـاحب النفـوذ الكبير ، فأمـر بجلده بالسياط وطرده من عمله بالقصر شر طردة .

وترك النديـم القاهرة ، وسار إلى المنصورة ليفتح دكـاناً لبيع الخردوات ؛ ولكنه أفلس وأغلقـه ، بعد ما تـركه وانغمس فى مجالس العلم والأدب ، واتجه النديم إلى طنطا ثم عاد إلى القاهرة من جديد .

وعقب عودته ، انضم مرة ثانية إلى مجلس الأفغانى ولكن كأحد أبرز التلاميذ الذين قرر الأفغانى إعداده لدور قيادى سيغير مجرى حياته .

فقد جعل الأفغانى تلميذه النديم - لما يتمتع به من مواهب وقدرات فذة - رسول دعوته بالإسكندرية للتحرير من الظلم الاجتماعى والاستبداد السياسى والاحتلال الأجنبى .

وهكذا سارع النديم إلى الإسكندرية يحاول تكوين رأى عام مستنير ، وتنظيم المقاومة الشعبية ، وتحرير الصحف التى تعبر عن جماعة الأفغانى أو المحفل الماسونى الذى أسسه المصلح الكبير .

وما أن حط النديم رحاله بعروس البحر المتوسط حتى بدأ رحلة كفاحه السياسى والثورى الطويلة ؛ وتحول من نديم للكبراء والعمد والأعيان بمجالس الأدب إلى زعيم ثورى ظل يقاتل ويحارب ويناضل حتى الموت .

فقد انضم النديم إلى جمعية « مصر الفتاة » السرية ، وأخذ ينشر المقالات التى تدعو للثورة على الخديوى والاستعمار ، وأخذ يحرر أسلوبه من المحسنات المتكلفة وسائر ألوان البديع ، واتبع إسلوبا أقرب إلى العامة فى مجال دعوته إلى الإصلاح الاجتماعى والسياسى .

وظهر حب النديم للخطابة ، والتف حوله الناس فى كل مكان ، وأصبح أشهر خطباء عصره ، وقد كون مدرسة علم بها النشىء فن الخطابة وكيفية اتخاذها وسيلة لتثقيف الشعب وإيقاظ الشعور القومى ، وكانت هذه المدرسة جزءًا من « الجمعية الخيرية الإسلامية » التى أسسها النديم لإيجاد حركة تعليم لا تسير على نهجه المدارس الحكومية .

وأخـذت الصحف تنشر خطب النديم فى كل مكـان كاملـة ، وانهالت عليه الألقـاب « خطيب الشرق » ، وعلى جماعته « سـوق عكاظ » ، وعنـدما جاء الخديـوى توفيق كان النديم قـد مد نشاط الجمعية فأصبحت لها فـروعاً كثيراً فى المدن الكبرى ، وانضم إليها مئات الآلاف .

أنشأ النـديم مجلـة باسم « التنكيت والتبكيت » وكـان يتخطفهـا رجل الشارع لكونها مرآة تعبر عن واقع حـاله ، وتهاجم طبائع الاستبداد ومساوىء الاحتلال بإسلوب رائع وسهل يجمع بين النكته والقصة .

وقد حدث أن كان أحمد عرابى يمهد مع زملائه للثورة العرابية فوجد فى النـديم خير متحدث بـاسمها ، وأعظم خطيب لها ، يجمع الشعب حـولها ، وقد كان كذلك وانضم النديم إلى جيـش عرابى ، وكان المدنى الوحيد وسط صفوف العسكريين .

وقد ظل النـديم بجانب عـرابى خلال حـربه ضـد القوات البريطـانية حتى وضعت الحرب أوزارها ؛ ورغم هـزيمة عـرابى إلا أن النديم ظل يُلهب حماس الشعب ، ويشعل ثورته ضد قوى الظلم والطغيان حتى أُلقىّ القبض عليه فى شهر أكتوبر عام ١٨٩١ ونفى إلى « يافا » .

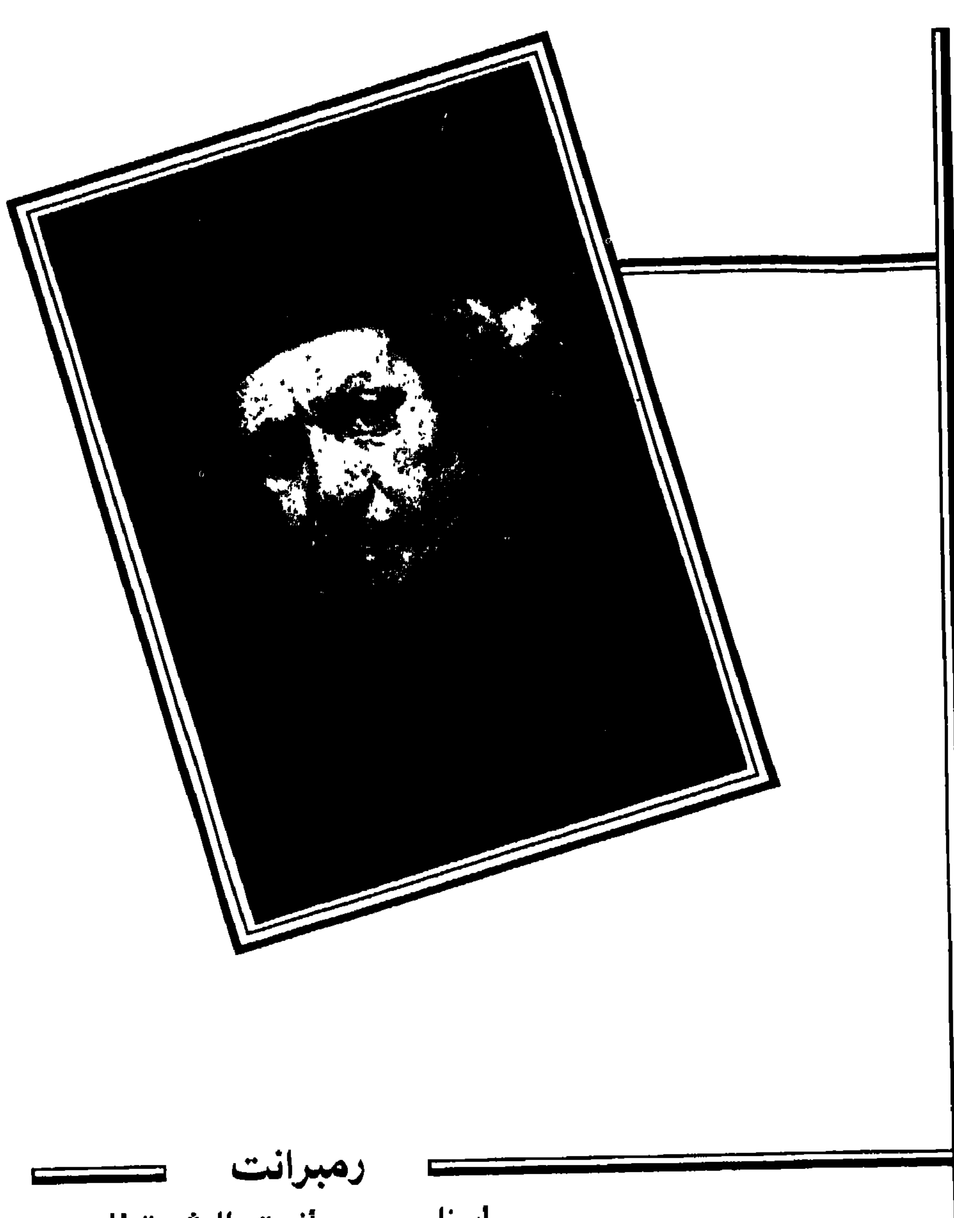
وبعـد عـام واحد عـاد النـديم وأصـدر مجلة « الأستـاذ » وأخـذ يهاجم الإنجليز حتى أصدروا أمراً بنفيه إلى « يافـا» مرة أخرى ثم الأستانة حيث أمر السلطان عبد الحميد بتعينه فى وظيفة كبيرة بالباب العالى .

وما هى أربعـة أعوام حتى أصيب النـديم بالسل ومـات فى العاشر من أكتوبـر عام ١٨٩٦ عن عمـر يناهـز الرابعـة والخمسين تاركـا سيرة عظيمة لخطيب ومناضل عظيم .

□○□○□



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



رمبرانت

أعظم مصور أنجبته البشرية !!



هو عبقرى بكل معنى الكلمة .. ورغم مرور أكثر من ثلاثة قرون على رحيله إلا أن فنه العظيم ، وتراثه الخالد جعل اسمه يتوهج ، ويزداد لمعانا كلما مرت عليه الأيام ، وإذا كان هذا الملهم المبدع « معجزة زمانه » ، و « عبقرى عصره » - على حد تعبير معاصريه ، وإذا كان هذا العملاق الفذ « المصور الأعظم » كما يصفه نقاد اليوم فإن ما خلفه من تحف رائعة جعلت منه أسطورة فى عالم الفن والجمال .

هذا هو الرسام الهولندى الفذ رمبرانت أعظم مصور أنجبه التاريخ ، وأكثر رسامى العالم من حيث غلو ثمن لوحاته .

ولكن هذا الهرم الشامخ له قصة غريبة فى غاية الغرابة فقد كان عليه أن يتجرع شتى كئوس الصبر ، ويتحمل كل صور الأسى ، والألم حتى يحفر بريشته اسمه بين عباقرة عصره الذين تفوق عليهم فيما بعد .

وإذا كان رمبرانت قد بدأ حياته معدما ، فقد أنهاها أيضا معدما ، ورغم تعاظم ثمن لوحاته ، وخاصة بعد وفاته ، إلا أن صاحب كل هذا الإبداع ، وكل هذه العبقرية ، ذاق الأمرين حتى يجد قوت يومه .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد فقد عاش رمبرانت آخر أيامه مفلسا لا يملك مليما واحدا ، يطارده الدائنون ، وتستوقفه لعناتهم لعجزه عن السداد .

ولكن ما هى قصة كفاح هذا الفنان الذى تدفع عشرات الملايين للوحاته اليوم عن طيب خاطر ، وبلهفة ما بعدها لهفة .. كيف حول صاحبنا

الهزيمة إلى نصر ، لم يقبض فى حيـاته ثمنـه .. وكيف ترك للبشريـة تراثـا فنيا خالدا من عصارة فكره ، وخصب خياله ؟!

بدايـة رمبرانت بدايـة تعسة ليس فيهـا ما يعين على النبـوغ أو يدفع إلى الاتجاه إلى الفن ، فقد ولد هذا الرسـام فى أسرة فقيرة بالكاد تسد رمقها فى عالم لا يعرف الرحمة ، ولا يعرف الوسطية ، فالناس إما غنى شديد الثراء ، أو فقير شديد البؤس والشقاء .

ولد رمبرانت بمدينة « لايدن » فى الخامس عشر من يوليو عام ١٦٠٦ ، وكان أبوه خبازا ، كما كانت أمه أيضا ابنة خباز ، فى بيت متواضع نشأ الطفل وسط سبعة إخوة هو أصغرهم جميعا .

ووسط جو تخيم عليه الكـآبة والإحساس بالظلم وعـدم المساواة ، وأمام هذا التمييز الصارخ بين قسمى المجتمع فى هولندا ، الغنى ، والفقير اكتشف رمبرانت أن عليه أن يسير على نهج بقيـة إخوته ، ويعمل لدى أى تاجـر بأيه وظيفة ، ليجـد ما يسد بـه رمقه ، ويستر بـه جسده الذى كـان يقتله الصقيع عندما تشتد قسوة فصل الشتاء المرعب فى بلاده .

ولكن روح الفنان الكامنة فيه أخذت تـدفعه إلى طريق آخر . طريق تجد فيه ما خلقت له ، وجـاءت الحياة من أجله ، لقد أصر الصغير على التعليم ، وأمام رغبته ذهب به أبوه إلى المدرسة الابتدائية ليبقى فيها عدة سنوات .

وفى هذه المدرسـة لم يجد الصغير وقتا كـافيا لممارسـة هوايتـه التى بدأت تتفتح لتوها ، وتعلن عن نفسها ، فقـد ضاق ذرعا بمواد دراسية لاحصر لها ، وكـان التعليم يعتمد على شحـذ الـذاكرة ، والقـدرة على تخزين أكبر كم من المعلـومات ، وعجـز رمبرانت عن متـابعة دروسـه ، وكان يُضرَبُ عـادةً على

أيدى مدرسيه بسبب انشغاله عن الدرس بالرسم . مدرس واحد فقط كان سعيدا بالصغير هو مدرس الرسم .

وبعد أن أبدى الغلام استيائه من المدرسة ، وأبلغ والده بعدم رغبته فى إكمال تعليمه عمل مع أخوته أعمالا مختلفة لبعض الوقت قبل أن يبدأ تعلم اللاتينية ولكنه لم يفلح أيضا ، ولم يبدِ أى استعداد يُذكر .

وضاق والده به ذرعا ، وأخذ يعنفه ، ويطالبه بترك تلك الهواية « اللعينة » التى تذهب بوقته ، وتفسد عليه دراسته ، وتحول دون عمله كسائر أخوته للحصول على لقمته وسترته .

وبعد مشقة ، استطاع رمبرانت إقناع والده بإلحاقه بمرسم أحد الفنانين وكان يُدعى « فان سوانبرج » فتتلمذ على يديه لمدة ثلاث سنوات ، وذكر رمبرانت - فيما بعد - أنه كانت لهذا الفنان قدرة عجيبة على أن يدفع المرء إلى الاعتقاد بأن التخلى عن ريشته هو بمثابة الانتحار بعينه ، وأن الفن هو تصوير الحياة بحسنها وقبحها ، بصدقها ، وكذبها ، بحلوها ومرها .

وقد استطاع رمبرانت خلال سنوات عمله مع سوانبرج أن يتعلم كيف يستثمر فنه فى الحصول على قوته ، وكيف يحصل على المال أيضا لتطوير مهاراته ، وتحسين أدواته ، والإنفاق على استيعاب الدروس الفنية التى يمكن أن تصقل موهبته ، وتجعل من ريشته أداة تعبيرية على مستوى عالٍ من الروعة والجمال والقدرة .

وما أن جمع رمبرانت بعض المال من بيع بعض لوحات له ما هى إلا بدايات أولى ، أو تجارب لم تكتمل ، سافر صاحبنا إلى « أمستردام » ليقدم نفسه إلى الفنان « بيتر لاستمان » الذى كان من أبرز فنانى هولندا وأوربا فى تلك الحقبة .

وفى كنف هـذا الفنـان الكبير تعلم رمبرانت الكثير وأظهـر أيضـا من مواهبـه الكثير حتى إن أصدقاء لاستهان والمقـربين إليه أخذوا يتحـدثون عن الرسام الصاعد بقوة الصاروخ .

وبمجـرد أن أحس رمبرانت بأنه أدى واجبـه بإخـلاص تجاه فنه ، وأنـه امتلك القدرة على تطـويع موهبتة وريشتـه لأفكاره الذاتيـة التى كانت تعبر عن إتجاه جـديد فى فن التصـوير ، اكتفى بهذا القـدر من العلم والدراسـة ، واكتساب المهارات ، وعاد إلى مدينة « لايدن » .

ولم ينتظر رمبرانت طـويلا حتى افتتح مرسمـه الخاص ومنذ ذلك الحين بدأ رمبرانت فى التألق ، وأخذت شهرته تزيد يوما بعد يوم .

وكـان اهتمام رمبرانت الرئيسى منصبـا على الصـور الشخصية مستغـلا براعتـه اللا محدودة بـانتزاع أدق ملامح وتعبيرات الـوجه ، وتأكيـد شخصية صـاحبه ، ولم يترك رمبرانـت أحدا من أسرتـه ، أو أقـربـائه ، أو أصدقـائه ، ومعارفـه إلا ورسم صورة لـه ، ويكفى أنه رسم نفسـه عشرات المرات ، حتى إننا إذا مـا قمنا بترتيب هذه الـرسوم أو تلك اللوحـات سنجد لدينـا شريطا مسلسلا لحياة رمبرانت فى مراحلها المختلفة .

وما أن عـرف مجتمع النبلاء ، والأثرياء قـدرات هذا الرسـام الفـذ حتى انهالت عليه طلبـات رسم لوحـات شخصية لهم مـدفوعـة الثمن ، ولما كان صاحبنا فقيرا ، يريد فقط أن يضمن حصوله على لقمة العيش ، والحد الأدنى لنفقات المعيشـة ، فقد قبل المهمة ، وربما وجـد فيها فرصـة لكى يحل على ما يستحق من مكانة وشهرة فى المجتمع الذى يعيش فيه .

ويبدو أن لـوحات رمبرانت الأولى كـانت ثورة فى فن الـرسم فى بلاده ، حتى إن جميع النبـلاء أخذوا يستميتـون لكى يـرسم لهم هذا المصـور العظيم صـورهم الزيتيـة حتى يزينـوا بها جـدران قصورهم ، أو منـازلهم ، وفى ذلك الـوسط البرجوازى وجـد رمبرانت فى البدايـة أن تصويـر الأشخاص مهمـة مريحة ؛ ولكنها لا ترقى إلى طموحه الفنى ومواهبه الفذة .

ومـا أن وقع اختيـار صاحبنـا على العـاصمـة « امستردام » لتكون مقـرا لمرسمه وحياتـه الفنية حتى بدأ يزاول هـوايته الحقيقية ، ويرسم مـا يشعر أنه إضـافـة جـديـدة لهذا الفن التشكيلى العظيـم ، وكـان من أعظم مـا رسمـه رمبرانت هناك لـوحته الشهيرة الت تحمل اسم « محاضرة فى التشريح » والتى ظهرت فيها قدرته غير العاديـة على إبراز ملامح ، وتعبيرات الوجوه المختلفة لمجموعة من الأطبـاء يحيطون بجثة راقدة فوق المشرحـة ، وكيف خلق الرسام الكبير انسجاما وتنـاغما من الرءوس التى تعلو الياقـات البيضاء المنبثقة من ظلام خلفية اللوحة القاتمة !

ولكن نجـاح رمبرانت الساحق لم يستطع أن يمـلأ الفراغ القاتـل الذى كان يحيل حياتـه إلى فوضى وعـدم استقـرار ، وإحســاس قاتل بالوحـدة ، وفى عـام ١٦٣٣ تـزوج رمــبرانت مــن ابنـة أحـد تجار التحف فى امستردام تـدعى « ساسكيـا » وكـانت على جانـب كبير من الجمـال والفتنـة والحسن والثراء أيضـا .

وقد كان لزواج الرسام الشهير أثـر عظيم فى لوحاته التى انعكس عليه ، وظهر فيها بجـلاء جو المرح والبهجة والسعادة التى خلقتها امرأتـه الرائعة ، وهناك لوحة شهيرة رسمهـا رمبرانت بعد زواجه تجمع بينهما هى دليل صادق على هذا التحول فى ريشة هذا العبقرى .

ويبدو أن السعادة لم يُكتب لها أن تدم طويلا فى حياة رمبرانت الذى ذاق الأمرين حتى يُكوّن عشه الهادىء ، وبيته الجميل الذى كان يجمع فيه كل ما تقع يده عليه من لوحات ، وتحف وأبليكات .

فقد هاجمت الأمراض زوجته الملهمة عقب ولادة ابنه « تيتوس » ، ولم تمكث « ساسكيا » فى فراشها طويلا ، حيث عاجلتها المنية لتترك الفنان الكبير ووليدها الصغير فى جو مفعم بالأسى والحزن والألم يكابدان مشقة الحياة دون حنان الزوجة ، وعطف الأم .

وإذا كنا نريد أن نؤرخ للفصل الأخير من حياة رمبرانت .. أو بداية النهاية ، فيمكن أن نجعلها تبدأ منذ اللحظة التى فقد فيها حليلته وملهمته وأم ابنه . حيث إن جميع المربيات لم يفلحن فى تعويض الصغير عن رحيل أمه .

ومما زاد الطين بلة أن إحدى المربيات استماتت لكى تدفع سيدها الرسام المشهور للزواج منها ، ولما فشلت فى إثارة سيدها ، الذى تعامل معها بفظاظة وغلظة ، تقدمت هذه المربية وكانت تدعى « جيرتغ » بدعوى أمام المحكمة تتهم فيها رمبرانت كذبا بمحاولة اغتصابها ، بعد أن وعدها بالزواج ، ثم أخلف وعده ، وتبرأ المحكمة ساحته ، وتخرج المربية من البيت إلى الأبد .

وعندما وجد صاحبنا مدى عطف وحنان المربية « هندريك » على ابنه حتى فكر فى الزواج منها ، ولكن زوجته « ساكسيا » كانت قد أوصت قبل وفاتها بكل ثروتها إلى رمبرانت شريطة ألا يتزوج من بعدها ، وإن فعل تؤول كل ثروتها إلى ابنها تيتوس .

ويضطـر رمبرانت إلى التخلى عن فكـرة الـزواج بعـد أن عـرف الجميع العلاقـة الوطيدة التى تجمع بينـه وبين المربية ، الأمر الذى تنـاقلته الصحف وجعلت منـه فضيحة هـزت كيان صـاحبنـا ، ومع ذلك استمرت هنـدريك بالمنزل ؛ لأن علاقتها بالأب ، والابن تفوق ما يتصوره المرء من قوة ، ومتانة .

ولكن حدث أن اثقلت الديون كاهل رمبرانـت وأصبح ما لديه من بقية ميراث زوجته على وشك الضياع أيضا فـاتفق ابنه مع المربية على الحجر على أبيه ليكون شركة تقوم بتسديد ديون ابيه ، وتصلح من أوضاع الأسرة المالية .

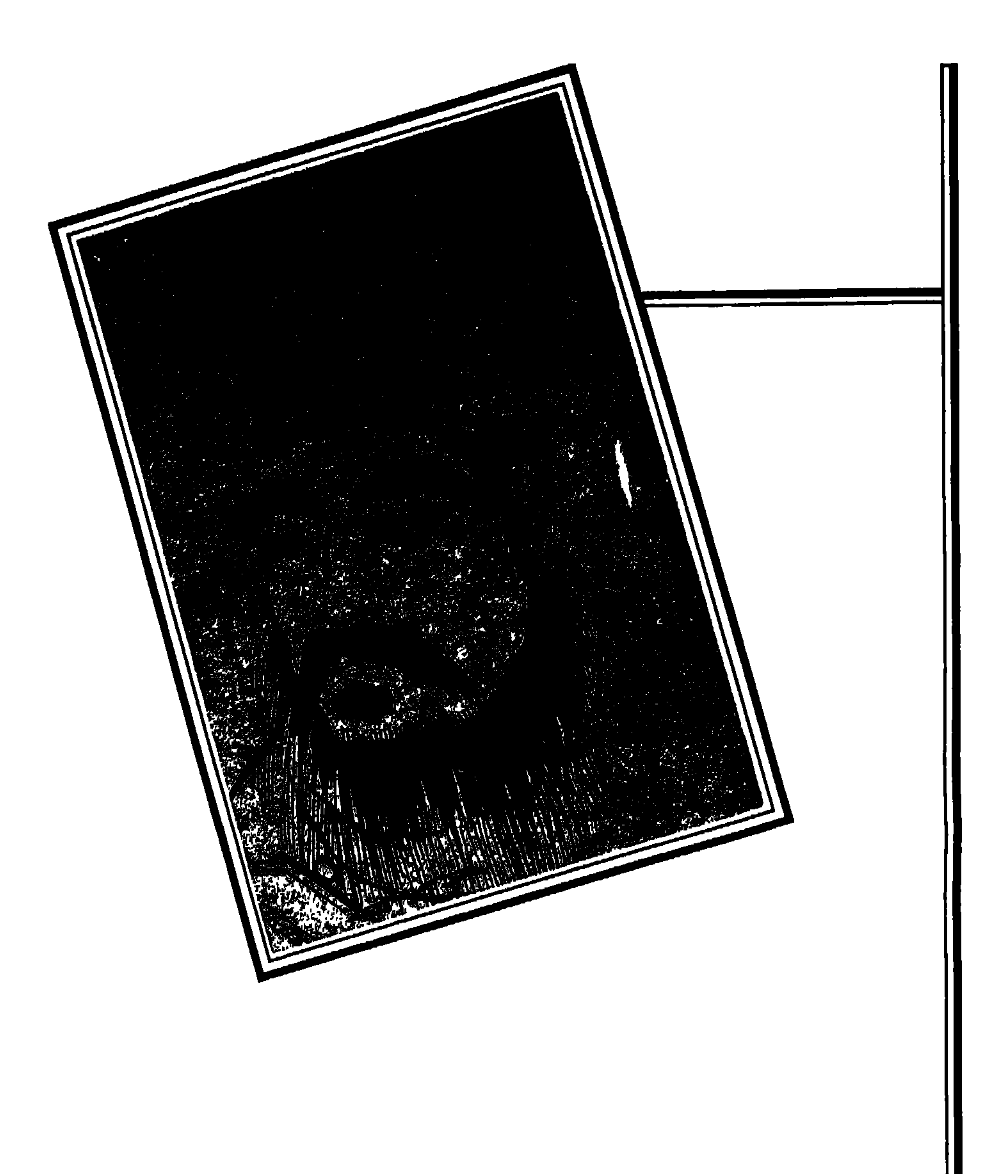
ورغـم ضيق وتبرم رمبرانت بهذا التصرف فى البـدايـة إلا أنـه وجـده فى النهاية حلا رائعا يتيح له التفرغ للرسم والإبداع .

وما هى أعوام قليلة حتى يختطـف الموت المربية هندريك ويسود البيت الظلام ، والوحدة ، ويتلقى رمبرانت صفعـة أخرى أقوى وأعنف زلزلت كل كيانـه ، فما أن تزوج ابنـه من ابنة أحـد الصاغـة ، حتى اختطفه الموت تـاركا للفنان الكبير حفيدا جاء إلى الدنيا بعد وفاة أبيه .

وبدأت مسحة من الحزن تظهر على ريشة رمبرانـت وتسوء أحواله المالية من جـديد ، ويهاجمه الفلس والعـوز والحاجة ، ويـرفض الرجل أن يبيع فنـه وعـاش آخـر أيامـه فى مأسـاة حيث اجتمع عليـه الفقـر والمرض ، رغم بيع لوحاته فيما بعد بملايين الدولارات .

ولفظ رمبرانت أنفاسـه الأخيرة فى الرابع من شهر أكتوبـر عام ١٦٦٩ ، لتنتهى حيـاة أعظم مصور أنجبـه التـاريخ استطـاع ترويض النـور ، والظل ليصنع منهما ملاحم تصويرية لم يسبقه أحد إليها .

□○□○□



كونفوشيوس

فلسفة أم مذهب أم نظام حياة ؟!


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عندمـا مات أبوه لم يكن قد تجاوز الثـالثة من عمره بعـد ، وما أن شب عن الطوق حتى اكتشـف أن عليه أن يتعايش مع أمـرين فى غايـة القسوة أو كما يقول الشـاعر : أحـلاهما مر ، هذين الأمـرين هما : الفقر وضـآلة الشأن خـاصة وأن المجتمـع الذى قـدر لـه أن يولـد ويكبر فيـه لم يكن يعترف إلا بسلطان المال أو جبروت السلطة .

وعلى الرغم من أن الطفل الفقير الذى جـاء إلى الدنيا فى عام ٥٥١ قبل الميلاد ورحل عنها بعد اثنين وسبعين عاما لم يجد مـا يسد به رمقه ، وبالتالى لم يملك ما يدفعـه مقابل تلقيه العلم ، إلا أنه استطـاع أن يعتمد على نفسه فى تحصيل المعـارف ، واستيعـاب العلـوم حتى أصبـح بـلا منـازع أحـد أعظم المعلمين فى التاريخ كله !

هذا هـو الفيلسوف والحكيم الصينى كونفـوشيوس الذى يعـد المسئول الأول عن صياغـة تفكير ، وعقيدة وأخـلاق وعادات ، وتقـاليد أهل الصين أكبر شعوب العالم من حيث تعداد السكـان على مدى أكثر من عشرين قرن من الزمان .

فقد وضع كونفوشيوس مذهبـا يضمنه جميع الأفكار الروحية التى تهدى السلـوك الاجتماعى والأخـــلاقى لشعب الصين ، والقـادرة على خلـق حيـاة فاضلة كريمة تقدم فرصا متساوية للجميع للعطاء والبذل والبناء .

كما وضع الفيلسـوف العظيم فلسفـة قوامهـا الأخـلاق وتنقسم قسمين أولهما أخلاق الفرد أو الأخلاق الشخصية وهى التى تنبع من ضمير صاحبها اليقظ ، وعقـله المستنير ونفسه التى تنزع للخير دائما ، ثم أخـــلاق الجماعة أو

الحكومة التى تخدم الشعب وتكون تطبيقا لِمُثُل أخلاقية أسمى ، وقال كونفوشيوس : « إن عماد الدولة لابد أن يكون « الأخلاق .. الأخلاق .. ثم الأخلاق » .

وقد كان كونفو شيوس على قدر كبير من الثقافة والروحانية بحيث كان يستطيع أن يتغلغل داخل أعماق النفس البشرية ، ويقرأ ما وراء الحجب من نوازعها ، وغرائزها ، ورغباتها ، ومطالبها ، وكما كان الناس يلاحظون عظمة الشاب الذى لم يتجاوز الثامنة والثلاثين ، كان هو أكثر إيمانا بأن له مهمة أسمى من مجرد موظف حكومى بسيط التى انتهى إليها ، ولذا قرر ترك عمله بسلك الموظفين ، واستقال .

ولكن كونفوشيوس لم يكن ليستقيل بهذه السهولة ، فقد فكر كثيرا ، وكان يتراجع ، بيد أن هذه المرة كانت كما كتب فى استقالته احتجاجا على الظلم الفادح الذى تعرض له الدوق الشرعى فى مقاطعته الذى تم اقصاؤه دون وجه حق .

ولعل هذه الحادثة قد ألهبت حماسه ، ودفعته إلى الاتجاه للتعليم ، فجمع حوله حشدا من التلاميذ وأخذ يعلمهم كافة فنون الحياة ، وسبل بناء شخصية سوية ، ومجتمع فاضل .

وقد ظل كونفو شيوس يطوف أرجاء الناس يعظ الناس ، ويعلمهم ، ويثقفهم طيلة ستة عشرة عاما حتى ذاع صيته ، وأصبح المعلم الأول فى الصين وبعد رحلة عناء طويلة ، عاد كونفو شيوس للعمل بالحكومة مرة أخرى .

ولكن الفيلسوف والحكيم لم يعد ذلك الرجل الذى عمل من قبل فى سلك موظفى الحكومة ، لقد عاد هذه المرة معلما ومرشدا وداعيا للتغيير، والدفاع عن حقوق المظلومين والمحرومين ، فأصبح يمثل خطرا على رؤسائه المستبدين ، ومدرائه المرتشين ، فما كان منهم إلا أن يحيكوا له المؤامرات والمكائد والدسائس حتى طُرِد من الحكومة .

ولكن كل ما تعرض له هذا العبقرى الفذ لم يثنيه عما وهب نفسه من أجله ، فقد أبى إلا أن يمضى فى تعليم الناس دون هوادة . إنه نموذج آخر لسقراط الفيلسوف الذى لقى حتفه من أجل نفس هذه الغاية النبيلة .

ترك كونفوشيوس المدينة كلها ، وعاد إلى سيرته الأولى حيث طاف بالبلاد متجولا قرابة ثلاثة عشرة عاما مبشرا وداعيا ومصلحا حتى عاد إلى بلدته الصغيرة الواقعة بولاية « لو » شمالى الصين ، ليبقى فيها سنوات خمس توفى بعدها وكان ذلك فى عام ٤٧٩ قبل الميلاد .

ورحل الرجل ولكنه باق حتى اليوم للدرجة التى ينظر إليه البعض على أنه أحد مؤسسى الديانات الكبرى ، رغم أنه لم يكن فى حقيقة الأمر سوى فيلسوف وحكيم ومعلم استطاع أن يشكل فكر وشخصية شعبه القومية عبر قرون عدة من خلال ما تركه لهم وأثر فى تكوينهم من طريقة فى الحياة ونظام فى التعامل وفق مذهب يعتمد الحب وحسن المعاملة والأمانة والاستقامة والاحترام المتبادل منهجا له . مذهب يفرض على الحاكم أن يكون مؤهلا خلقيا وسلوكيا للحكم ، أى أن شرط استقامة الحاكم وأتباعه قيم ومثل عُليا لازم لكى يتولى الحكم .

كما تضمن مذهب كونفوشيوس معالم الحكومة الشرعية وأهمها أن يؤمن أفرادها بأن وجودهم مرتبط بخدمة الشعب وليس العكس .

وقد تطـرق كونفـو شيوس أيضـا إلى العلاقـات داخل الأسرة الـواحدة فرسـم صورة تفضيلـة لما يجب أن تكون عليه عـلاقة الـرجل بـا لمرأة أو الزوج بزوجتـه وكما فرض على الزوج احترام امـرأته ، وحسن معاشرتها ، ومعـاملتها برفق ولين ، طالبها أيضا بطاعة زوجها ، وحسن معاملته .

وقد تـرك هذا الحكيم العظيم لبـلاده وللإنسـانية تراثـا عظيما من القيم والمثل والأقـوال المأثـورة ويكفى أنـه أول من قـال : « حب لغيرك مـا تحبـه لنفسك » .

ويؤمن الشـعب الصينى حتى يومنا هــذا بفلسفة كونفو شيوس إيما نا لا حد له ، ويشاركه فيها اليابانيـون والكوريون الذين ما أن وصلتهـم أبناؤها فى بدا ياتها الأولى حتى أمنوا بها أيضا .

وهكذا رحل كونفـو شيوس تاركاً وراءه شخصية قوميـة متميزة ومتفردة لشعبه هو الذى صاغها بفكره وعقيدته الخاصة ، فكان نعم المعلم .

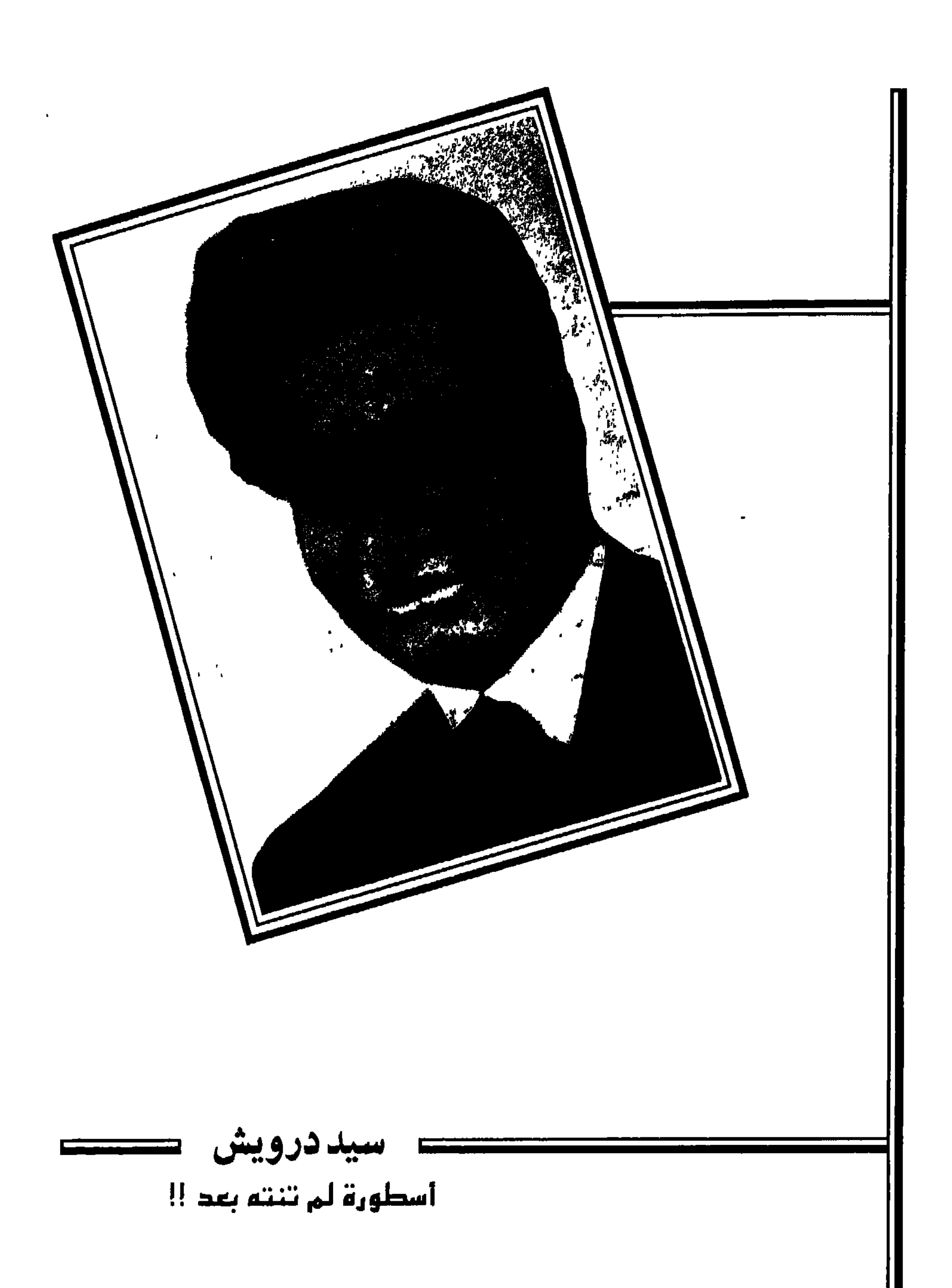
وربما يكون ختـامنا للحديث عن أحد أعظم المعلمين فى التـاريخ أكثر دقـة ، وإيجازا بسرد ما قـالـه كونفـو شيوس نفسـه عن مـذهبه وأسلــوبه فى التعليم .. يقول : « هل تـريد حقا أن تعرف رأيى فى هـذا العالم ؟ دعنى قبل كل شىء اتخلص من العوالم الأخرى ، فمع إننى اعتقد أن ثمة قوى روحية فى الكون لكنى لا استطيع أن أدرك طبيعة ما فوق البشر من الكائنات ، كما إنى أجد هذه الحياة ممتعة بحيث لا أفكر فى الموت أو فيما يلى الموت .

وكل مـا يشغل اهتمامى هـو خلق الإنسـان ، فـالعقل حسن والـذكـاء أحسن ، ولكن الأخـلاق هى التى تجعل من العقل دائما خـادمـا ، وهى التى تجعل الفرد صالحا أو طالحا ، ضعيفا أو قويا .

ولقد حاولت أن أربى الخلق عن طريق التعليم ، فعلمت تلاميذى أربع مواد رئيسيـة هى : « التاريخ كى يلهمـوا بالعظيم من أعمال الإنسـان ، وكى يجدوا فى دراسـة طبيعة البشر مـا يكبح جماحهم ، والشعـر كى يكونـوا ذوى خيـال ، والموسيقى كى يتطرق الانسجـام والـرشاقـة إلى نفوسهم ، وحسـن الطباع كى يكونوا سادة » .

□○□○□





سيد درويش

أسطورة لم تنته بعد !!



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وُلِدَ فى حارة ضيقة تبتعد كثيرا عن المدينة والعمران الذى تعايشه أحياء المدينة الباقية . كان أهل حارته فقراء ، بسطاء ، مطحونين ، كادحين ، يصلون الليل بالنهار حتى يجدوا ما يقيهم مرارة الحاجة ، وذل السؤال . أما هو فلم يكن أكثر منهم حظا ، أو أوفر منهم حالا . هو ابن نجار بسيط شأنه شأن بقية أبناء جارته يشقى معهم ، ويعانى مثلهم .

ورغم الفقر وضيق العيش إلا أن « سيد درويش » فنان الشعب ، ابن النجار البسيط ، استطاع أن يقتحم التاريخ ليخط اسمه فى سجل الخالدين الذين لا تزيدهم الأيام إلا بريقا ولمعانا ، ولا تمر ذكراهم دون أن تعترف لهم شعوبهم بما قدموه من عظيم الأعمال ، التى تمثل مدرسة أو تيارا أو اتجاها أو نقطة تحول فى مسار التاريخ !

عندما وُلِدَ سيد درويش فى السابع عشر من مارس عام ١٨٩٢ بإحدى الحوارى الضيقة فى كوم الدكة ، ذلك الحى الشعبى الضارب بجذوره فى أعماق الإسكندرية القديمة ، اقترحت أمه تسميته « عباس » تيمنا بالخديوى عباس الذى كان قد تولى لتوه الحكم ، رفض أبوه وأصر على تسميته « سيد » حتى يكون سيدا فى حياته ، وليس عبدا ذليلا .

ورغم ضيق ذات اليد ، فقد حارب درويش البحر والد الغلام حتى يدخله الكُتَّاب لكى يتعلم القراءة والكتابة ويحفظ بعض آيات من القرآن الكريم . ولكن القدر لم يمهل الأب حتى يكمل الغلام تعليمه الأول ، فمات قبل أن يبلغ سيد السابعه من عمره . ومع أن أمه وكانت تدعى « ملوك » غير

ميسورة الحال إلى الدرجة التى تنفق منها على تعليم الغلام ، إلا أنها تحملت ، وكافحت ، حتى تضمن لـه الاستمرار فى المدرسـة ، فقد رأت فيه مـا جعلها تتوسم فيه خيرا كبيرا .

وقد بـدأت مواهب وقدرات الغلام تظهـر وتبدو جلية بمجرد التحـاقه بـا لمدرسة الابتـدائيـة حيث كان يحفظ الأنـاشيـد ، ويلقى الأغانى بصـوت شجى ، ونغم عذب ، وخاصة أعمال الشيخ سلامة حجازى .

ولكن عظمة سيد درويش لم تكن وليدة اللحظة وإنما هى فطرية لدرجة كبيرة ، فقد ذكرت أمه ذات مرة أن ابنهـا كان يهتز ، ويستثار لسماع الموسيقى أو الغناء منـذ أن كان فى شهـره الأول ، حتى إنـه كان يترك ثـديها ، ويتجول بعينه بحثا عن مصدر الموسيقى أو الصوت .

كما ذكرت أنه كان يهوى الجرى وراء البـاعة المتجولين والسقاة ليستمتع بنداءاتهم الجميلة التى كانوا ينشدونها لجلب الزبائن ، وترويج بضائعهـم .

وقد كان الصبى الصغير مشهـورا بين أقرانه ومدرسيه با لمدرسـة بقدرته على الغناء الجميل ، حتى إنه كان يصحب التلاميذ عقب اليوم الدراسى إلى السـاحـات والحدائق ليغنى الأناشيـد والأغانـى ، ولم يقف الأمر عنـد هـذا الحد ، فقـد ذاع صيتـه فى الحارة والحى فأخـذ النـاس يلتفـون حـول الصبى الموهـوب يستمعون إليـه ، ويستمتعون بما ينشـده ، ويصفقون لما يظهـره من براعة ومقـدرة .

ورغم أن سيد درويش كان فنانا حتـى النخاع إلا أن أمه كانت ترى أن مستقبل الغلام لابد وأن يذهب فى اتجاه آخر ، أكثـر أمانا واستقرارا ، وضمانا لأيام قـادمة لا يـدرى سوى الله مـاذا يمكن أن يحدث فيها ، نـاهيك من أن

نظرة الناس وقتذاك وخاصة الأباء والأمهات للفن كانت ضيقة أو غير مشجعة !

قدمت الأم لابنها أوراقه فى المعهد الدينى العلمى الذى كان قد فتح لتوه أبوابه فى تلك الأيام ، ورغم اهتمام الابن بدراسته فيه ، إلا أنه لم ينسَ الفن بل استمر فيه ، وأخذ يُحيى الحفلات والأفراح لأصدقائه والمعجبين به حتى أصبح خلال فترة وجيزة حديث الإسكندرية كلها ، وأحد أكثر من يشتهرون فيها بالغناء الجميل .

ومع الأيام لم يجد سيد درويش مفرا من الاعتراف بحقيقة واقعة فى حياته ؛ ألا وهى أن « صاحب بالين كذاب » وأن الجمع بين الفن والدراسة أمرا فى غاية الصعوبة ، فالسهر والأفراح اللازمة لكسب الرزق ودراسة الموسيقى بالاعتماد على الذات يحتاج إلى تفرغ تام . ورغم نجاحه بتفوقه فى السنة الأولى بالمعهد إلا أنه سرعان ما قرر أن يتركه من أجل الفن .

وبعد ترك المعهد تزوج سيد درويش وهو فى السادسة عشرة من عمره ، ولم تكن بالطبع هى الأخيرة فقد تزوج ثلاث مرات أخرى ، كما أحب كثيرات كُنَّ مصدرا لوحيه وإلهامه .

وفى ذلك الوقت ، استطاع سيد درويش لأول مرة أن يخرج العالم عملاقا فى مجال الفن عندما لحن طقطوقة « زورونى كل سنة مرة » ، وكانت عتابا رقيقا لامرأة أحبها وهجرته . وكان وقع الأغنية كالصاعقة التى نزلت فوق رءوس الجميع فنبهتهم إلى أن هناك فنانا عظيما تصوغه الحياة ، وتشكله لكى يتبوأ مكانة عظيمة .

ولكن الفترة التى تلت هـذا العمل المبدع شهدت تـراجعا ملحـوظا فى تقدم سيد درويش الفنى حيث اضطرتـه متطلبات الحياة ، وتكاليف المعيشة أن يغنى فى الحانـات والملاهـى والبـارات ، وظل هـائما على وجهــه كل همه وشغله الشاغل هو توفير نفقات العيش لأمه وشقيقته وزوجته .

وأثناء غنائه ذات مرة على إحـدى المقاهى ، سمعه الأخوان سليم وأمين عطا الله وعـرضا عليـه السفر للشـام ، ووافق وخرج لأول مـرة فى حياتـه من مصر وفى أول رحلة فنية فى تـاريخه الفنى ؛ ورغم عودته من الشـــام مفلســا إلا أنه استطاع التعرف على التراث الشامى وخاصة السورى وحفظ بعضه .

وبعد عودة سيد درويش ومولد ابنه محمد البحر عاود الغناء فى الحانات والأفراح ثم سافر ثانية لسوريا ، وكانت رحلة ناجحة عاد بعدها ومعه بعض النقـود ليبـدأ تلحين أعمالــه الــر ائعـة « فى شرع مين » ، « ضيعت مستقبل حياتى » ، « ياللى قوامك يعجبنى » ، « أنا هويت » .

ثم التقى سيد درويـش مع الممثل الراحل نجيب الـريحانى أحد أعظم نجـوم عصره ، وجـورج أبيض أحـــد رواد المسرح فى مصر والعـــالم العـربى ومعهم قام بتلحين عدد من الأوبريتـات الاستعراضية منها «ولو» و «اشى» ، و « قولوا له » و « فشر » ورواية « العشرة الطيبة » .

وسرعان ما ذاع صيت سيد درويش ، وبلغــت شهرته جميع أنحاء مصر والعالم العربى ، خـاصةبعد ما أصبح اللحن الأول لفـرقة على الكسار ومنيرة المهديـة ، ثم أنشأ فرقة خـاصة به ، ولحن روايتى « شهـرزاد » و « البروكة » ؛ وكان أعظم مـا يميز ألحـــان سيـد درويش وأغنياته هـو قربها أو بمعنى أدق إلتصـاقها برجـــل الشـارع ، وتعبيرها عن معـانـاته وظـروفه الصعبـة وسط

احتلال ، وبطـالة وكسـاد ومَنْ مهد سيد درويش بفنـه لثورة شعبيـة ، وقدم ألحانا حماسية تلهب وجدان الشعب ، وخاصة مع ثورة ١٩١٩ .

كما كانت هذه الثورة إيذانا بمرحلة جديدة فى حياة هذا العبقرى الفذ ، فقد خـرج سيد درويش فى مظاهرات يقـودها بنفسه ، ويلقى فيها الأنـاشيد الـوطنية وعلى رأسهـا ذلك النشيد الخالـد الـذى لا يزال يلهب حماسنـا كلما سمعنـاه ، والـذى أصبح النشيـد الـوطنى لمصر « بـلادى بـلادى لك حبى وفؤادى » .

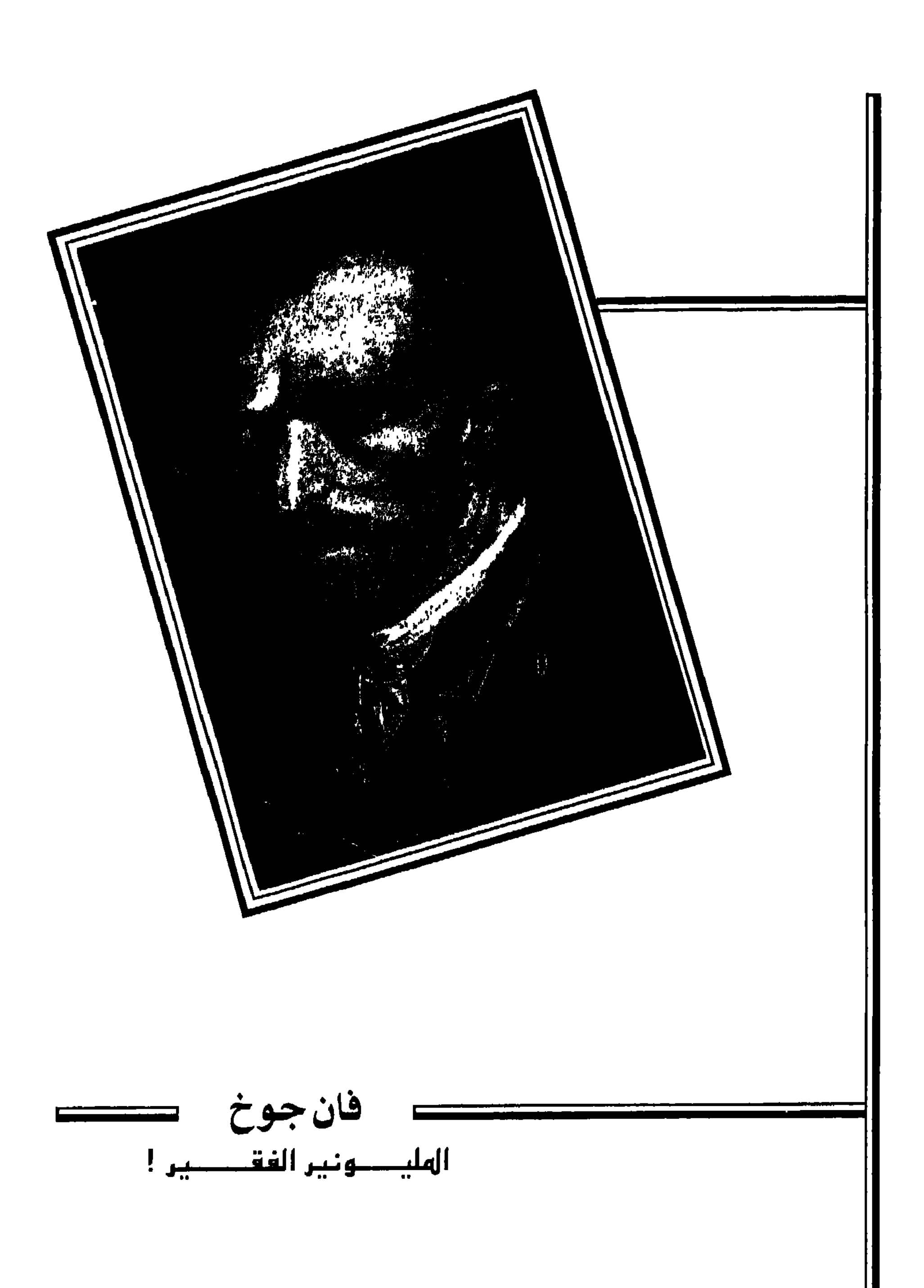
كما قدم سيـد درويش أناشيد أخـرى لا تقل روعة عن بـلادى بلادى » مثل « أنا المصرى كريم العنصرين » ، «قوم يامصرى مصر دايما بتناديك» .

ومن أشهر مواقـف الشيخ سيد درويش الوطنية سفـره إلى الإسكندرية لاستقبال سعد زغلـول الزعيم الوطنى لـدى عودته من أوربا ، وكـان قد أعد لحناً وطنياً لاستقباله فى غاية الروعة.

ولكن لم يمهل سيـد درويش حتى يلقى لحنـه الجميل فقـد وافته المنيـة عقب وصوله الإسكنـدرية بيوم واحد . مات سيـد درويش فنـان الشعب ولم يشيع جنازته غير نفر قليل ، مات دون أن يبلـغ الثانية والثلاثين من عمره ليسدل الستـار على حياة فنيـة حافلـة، لعبقرى قلما يجود الفن بمثلـه . رحل سيد درويش فى ريعان شبابه ، تاركاً تراثاً خالداً عاش وبقى وسيظل.

□○□○□





فان جوخ

المليـــونير الفقـــير !



ملايين الناس قد لا يعرفون أن الرسام العالمى الأسمر « فنسنت فان جوخ » كان مصابا بلوثة عقلية ، وأن هذه اللوثة كانت سر عذابه ، وشقائه الذى لم ينقطع منذ طفولته ، وحتى إطلاق الرصاص على نفسه تحت تأثيرها ، ليسدل الستار على حياة أحد أعظم الفنانين فى التاريخ .

فعند غروب شمس يوم الأحد السابع والعشرين من شهر يوليو عام ألف وثمانمائة وتسعين ، استوقف « فان جوخ » مشهدا ، لطالما كان يحلم بتصويره .. حقل صغير من حقول قريته « أوفرسورواز » . كان المشهد فى غاية الروعة . حقل ذهبى تتشعب فيه دروب صغيرة شقراء ، يحيط بها إخضرار مشرق ، وفى البعيد يطل أفق عميق الزرقة كأمواج البحر ، تسرح فى خلفيته غربان بلون الظلام .

وبينما يضع « جوخ » فرشاته جانبا ، بعد إتمام لوحته ، فإذا به يشعر بضيق شديد ، أعقبته حالة عصبية حادة ، وارتعاشة سرت فى كل أوصاله ، إنها النوبة البغيضة ، الصرع الذى أضيف إلى ما لديه من أمراض ، وفجأة بدأت أسراب الغربان تنعق فوق رأسه ، وتحوم حوله ، فأخرج مسدسه وبدلا من أن يصوب عليها أطلق الرصاص باتجاه صدره لتنفذ رصاصاته إلى قلبه ، وتكتب نهايته المبكرة !

وهكذا مات « فان جوخ » منتحرا - دون قصد - تحت تأثير نوبات الجنون ، نتيجة لمرض الصداع النصفى اللعين الذى داهمه فى فجر شبابه ، واستفحل فيما بعد ليأخذ صورا أكثر ضراوة ، وفتكا ، وتدميرا لصاحبها .

ورغم أن « جـوخ » الـذى ولـد فى الثلاثين من شهـر مـارس عـام ألف وثمانمائه وثلاث وخمسين عاش ومات فقيرا إلا أنه ترك تراثا خالدا حفر اسمه فى سجل العظماء ، وقـد ولـد صـاحبنـا فى بلـدة « زونـدبت » لأب قسيس بروتستـانتى طـيب القلـب ، وكـان وهـو غلام يميـل إلى العزلـة والتجول وحيدا فى الحقول .

ومع أن « جوخ » لم يكسب من فنه ، ولم يبع لوحاتـه أثناء حياته ، وقاس الجوع والبرد والمرض ، إلا أن أعمالـه سجلت أعلى الإيـرادات من محصـلة بيعهـا ، حتى أن لـوحـة « عبـاد الشمس » مثـلا بيعت فى ١٩٨٧ بـ٣٦,٣ مليون دولار ، ولوحة « إيريس » بـ٩ , ٥٣ مليون دولار .

ورغم أن « جوخ » مـات فى ريعان شبابـه ، إلا أنه تـرك لنا ما يـزيد عن ١٥٠٠ لـوحـة فنيـة نادرة كـانت بـدايـة ظهـور المذاهب التعبيريـة فى الفن التشكيلى الحديث .

والحقيقه أنه ما من فنان كتب عنه مثـل « فان جوخ » ، كما كانت حياته دائما مثارا للجدل الواسع ، خاصـة بسبب المواقف الغريبة فى حياته ، وآرائه الخاصة المتفردة فى الفن ، والنابعة عن تجربة ذاتية لصاحبها ، كما كانت لكل لوحة من لوحاته قصة تصلح وحدها لرواية عظيمة .

فهناك لـوحة « لفان جـوخ » يصور فيهـا نفسه وهناك خمادة حـول أذنه اليمنى . ويروى الباحثون أن جوخ المصاب بلوثـة جنون ، كان أحيانا غريب السلوك بـدرجة هائلـة حتى إنه قطع أذنـه وقدمها لسـاقية الحانة البـاريسية وتدعى « غابى » كدليل على حبه لها .

وتروى الكتب التى تناولت حياة هـذا العبقرى الفذ أنه أراد أن يعيد إلى فتـاة الحانـة السيئة السمعـة إنسـانيتهـا الضـائعة بين الرجـال .. وضبـاب

الـدخـان .. والليل الأسود .. وأقـداح الخمـر .. فقـال لها : « أحبك » فلم٣ تصدق كلامـه .. فقد سمعت هذه الكلمة ألف مـرة من رواد الحانة وزبائن البار ، فما كـان منه إلا أن قطع أذنـه كدليـل على حبها ، وقال : « إليك هذه الهدية الثمينة ، فاحتفظى بها !! » .

كما كان « لجوخ » قصـة أخـرى طريفـة مع صديقه الفنـان العـالمى « جوجان » الوحيد الذى كان كثير الخلاف معه ، فقد رسم « جوجان » لوحة لجوخ لم تنل إعجابه ، لأنه كان يعتقد أنها لا تشبهه ، وكان رد « جوجان » أنه رسمها «لجوخ » كما تخيله فى سن المائة عام .

وقد انتـابت « جوخ » فى تلك اللحظة نـوبة جنون ، فأخرج مسـدسه ، وأطلق على « جوجـان » احتجاجا على موقفـه ، وطاشت الرصـاصة ؛ ولكن الصديقان افترقا ، ومع ذلك فقد كان يجمعها حب وود وصداقة لا حد لها .

وعندما مـرض « جوجان » ولزم الفـراش قرابة الأسبوعين تـرك « جوخ » كل أعماله ، وذهب يقيم معه حتى يعتنى به ، ومهما كان من خلاف فى الرأى بين « جوخ » و « جوجـان » إلا أن كليهما كان معذبا ينـاضل من أجل رسالة الفن العظيمة .

ولم يكن « فان جـوخ » كباقى رفاقه مـن المبدعين ، فقد كان الفن لـديه شديد الخصوصية ، يرتبط أشد الارتبـاط بعقليته ، وجنونه ، وأحزانه وآلامه ، حتى إنه يتعـامل مع الرسم من خـلاله هو .. انظـر إليه يقـول : « لقد كنت دائما اعتقد أن مـا أرسمه هو الحقيقـة وأن الواقع ما هـو إلا رؤية مزيفـة لعالم الحقيقة داخلى » .

ويؤكد علماء النفس أن روائع « فان جوخ » وبالذات رسوماته العظيمة التى أبدعها قبل وفاته هى أكبر دليل على علاقة الفن بعلم النفس لأنها المرآة التى تعكس حالة الفنان النفسية والمزاجية ، وأبرز لوحات « جوخ » تلك التى يصور فيها نفسه ، ولعلها أصدق دليل على ذلك فقد رسم نفسه بأشكال مختلفة ، وملامح مختلفة تعبر عن حالات نفسية ومزاجية متباينة .

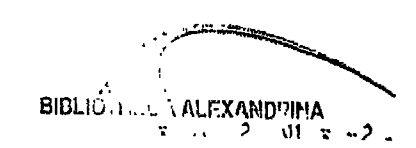
فقد رسم لنفسه لوحة « وجه بلا مشاعر » وتوجد بمتحف امستردام . وقد وضع فان جوخ فى هذه اللوحة كل أحزانه وقال لأخيه فى رسالة له . « هذه لوحة لرجل بائس وهذا ما سيقوله كل من يشاهدها » .

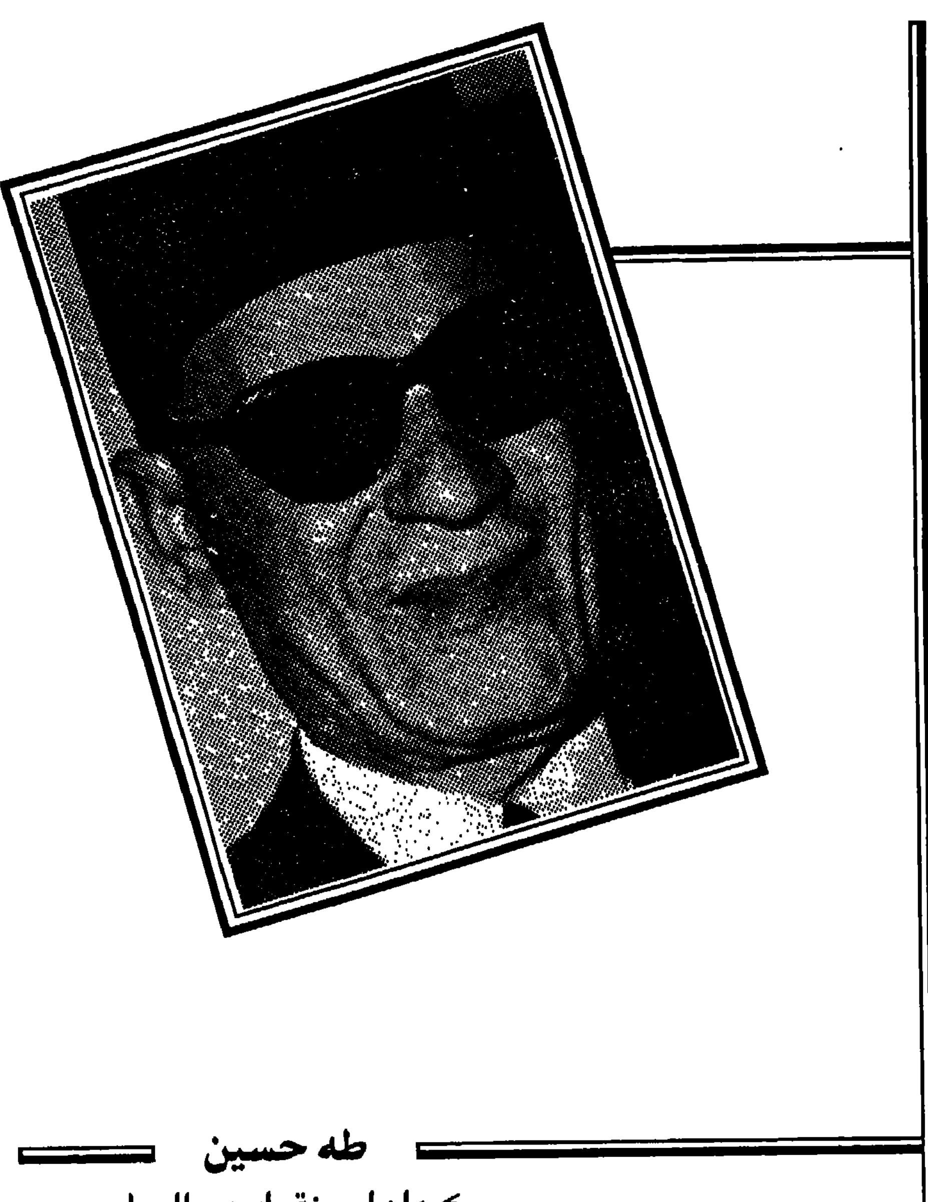
كما رسم لوحة لنفسه تصور حادثة قطع أذنه وهى الآن بحوزة ثرى أمريكى يُدعى« لى . ب . بلوك » بشيكاغو .

كما رسم لنفسه لوحة أخرى هى الآن بمتحف « اللوفر » فى باريس ، تعبر عن الوحشة القاتلة ، والوحدة المخيفة التى كان يحياها .

وهكذا كانت حياة « فان جوخ » التى لم تتجاوز السبعة والثلاثين عاما وكانت رحلة شقاء مع الألم والعذاب والتعاسة ، ورحل الطالب الذى بعث به أبوه لدراسة اللاهوت ، ورفع المعاناة عن كاهل الناس فزادته عذاباتهم عذابا فترك هذه المهمة ، وحاول أن يرفع صرختهم من خلال أعماله التى كانت تركز على البسطاء والفقراء والمعدمين . رحل المليونير الفقير الذى بيعت لوحاته بالملايين بعد وفاته منتحرا تحت تأثير مرضه !!

□○□○□





طه حسين

كروان لم ينقطع عن الدعاء



ليست البطولة أن تترفع على البطـل .. البطـولة هى أن تكون البطـل ، أو حتى تحاول أن تقترب منه بقدر الإمكان ، بعض الناس يفعلون هذا وهنا يكون المرء منهم عظيما ؛ ولكن هناك أناسا يصنعـون بطولة لم يقدر لأحد أن يأتى بها من قبل ، ويجعلـون من أنفسهم نموذجا متفـردا ، ومستقلا لبطـولة نادرة من نوع خاص ، ويكون المرء منهم هنا أعظمُ .

ومن هؤلاء العظماء الـذين صنعوا من أنفسهم ملحمـة بطولية تتنـاقلها الأجيـال ، وتتعـلم منهـا الأجيال ، وتحذو حـذوها الأجيال على مر العصور « عميد الأدب العربى الراحل الدكتور طه حسين » .

وعنـدما أراد عميـد الأدب العربى أن يلخص لابنتـه مأساتـه ؛ وكيف حـولها إلى قصة نجـاح منقطع النظير ، وانتصار سـاحق لأحـد أفراد الطبقـة الفقيرة الذى لم يكن يقدر لأمثـاله - فى ذلك الوقت - أن يبلغوا مـا بلغه هو ودفع من أجله ثمنا غـاليا فاحش الغلاء .. عندمـا أراد طه حسين أن يصور لابنته أن وراء عظمة أبيهـا ، وصورته الجميلة المشرقـة ، ورغد العيش ، ويسر المعيشـه قصـة كفاح تحمـل فيها الجوع والبرد والحر وكل ألـوان البـؤس قـال متحدثا عن نفسه :

« عـرفته فى الثـالثة عشرة من عمـره حين أُرسل إلى القاهـرة ليختلف إلى دروس العلم فى الأزهـر ، إن كـان فى ذلك الـوقت لصبى جـد وعلم . كـان نحيفـا شاحب اللـون مهمل الـزى أقرب إلى الفقـر منه إلى الغنى ، تقتحمـه العـين اقتحاما فى عباءته القذرة وطـاقيته الذى استحال بياضها إلى سـواد قـاتم ، وإلى هـذا القميص الـذى يبين من تحت عبـاءته ، وقـد اتخذ ألـوانـاً

مختلفة تقتحمه من كثرة ما سقط عليه من الطعام ، وفى نعليه الباليتين المرقعتين ، تقتحمه العين فى هذا كله ؛ ولكنها تبتسم حين تراه على ما هو عليه من حال رثة وبصر مكفوف ، واضح الجبين مبتسم الثغر مسرعا مع قائده إلى الأزهر ، لا تختلف خطاه ولا يتردد فى مشيته ، ولا تظهر على وجهه هذه الظُّلْمَة التى تغشى عادة وجوه المكفوفين » .

ويقول : « كان سابع ثلاثة عشر من أبناء أبيه ، وخامس أحد عشر من أشقته ، وكان يشعر بأن له بين هذا العدد الضخم من الشباب والأطفال مكانا خاصة يمتاز من مكان إخوته وأخواته . أكان هذا المكان يرضيه ؟ أكان يؤذيه ؟ ، الحق أنه لا يتبين ذلك إلا فى غموض وإبهام ، والحق أنه لا يستطيع أن يحكم فى ذلك حكما صادقا ، كان يحس من أمه رحمة ورأفة ، وكان يجد من أبيه لينا ورفقا .

وكان يشعر من إخوته بشىء من الاحتياط فى تحدثهم إليه ومعاملتهم له ، ولكنه كان يجد إلى جانب هذه الرحمة والرأفة من جانب أمه شيئا من الإهمال أحيانا ، ومن الغلظة أحيانا أخرى ، وكان يجد إلى جانب هذا اللين والرفق من أبيه شيئا من الإهمال أيضا ، والازورار من وقت لآخر .

وكان احتياط إخوته وأخواته يؤذيه ، لأنه كان يجد فيه شيئًا من الإشفاق مشوبًا بشىء من الازدراء .

على أنه لم يلبث أن تبين سبب هذا كله ، فقد أحس أن لغيره من الناس عليه فضلا ، وأن إخوته وأخواته يستطيعون مالا يستطيع ، وينهضون من الأمر لما لا ينهض له ، وأحس أن أمه تأذن لإخوته وأخواته فى أشياء تحظرها عليه .

وكان ذلك يحفظـه ؛ ولكن لم تلبث هذه الحفيظة أن استحـالت إلى حزن صامت عميق ، ذلك أنـه سمع إخوتـه يصفون ما لا علم لـه به ، فعلم أنهم يرون ما لا يرى .

هكذا تحدث عميـد الأدب العربـى الراحـل الـدكتور طـه حسين عن نفسه ، فى بلاغة شديدة ، وفصاحة بليغة ، وكيف اكتشف ، وهو لم يزل يتفتح لتوه للحياة أنه أعمى لا يستطيع أن يرى ما يراه الآحرون من حوله .

وقد كـان طه حسين صـادقا فى وصف مـا لقيه فى طفـولته من متـاعب ومصاعب لا حصر لها جعلته يحرم حتى على نفسـه ألوان اللعب ، والعبث ، وكل مـا يكلفه عنـاء أو يعرضـه للضحك أو الإشفاق ؛ لـذا كان دائما يعـزل نفسه عن باقى أقرانه ، وينتحى جانبا ليلعب وحده دون أنيس أو جليس .

ولكن شيئا واحـدا كان يشد إليه طـه الصغير ، وكان يملأ عليه حيـاته الطفولية الوادعة .. إنه إنشاد الشاعر ، وما يشتمل عليه من قصص خيالية ، وملاحم بطوليـة بعضها واقعى والآخر من بنات أفكـار ، وخيالات منشده ، كما كان صـاحبنا يعشق الاستماع إلى أحـاديث أبيه مع أصحـابه التى كـانت غالبـا ما تدور حـول قصص الغزوات والفتـوحات ، وأخبار عنترة والظـاهر بيبرس وأخبار الأنبياء والنُساك الصالحين .

وكما لعبت القصص والحكايـات والأغانى والأناشيد الصـوفية دورا فى حياة الصغير الذى كان يعوض فقدان بصره ، بـرهافة سمعه ، وقوة بصيرته ، وشفافية قلبـه ، لعب الكتاب دورا عظيما كان له أبلغ الأثـر فيما بعد فى تطور وارتقاء فكر وثقافة طه حسين .

فقد استطاع الفقيد الراحل بمسـاعدة الكُتَّاب أن يحفظ – وهو طفل لم يتجاوز التاسعة من عمره – القرآن كله ، وكان لوالده فضل كبير ، ولكن هذا

الفضل كان نتيجـة لما يراه فى الصغير من حب للعلم والمعرفـة ، وإقبال على استيعاب كل مـا يعرض عليه الأمـر الذى دفعه (الأب) إلى مواصلـة دعمه ومساندته لميل الغلام للعلم والمعرفة ، وتحفيزه على الاستمرار والتقدم .

ومـا أن انتهى الصبى الضريـر من حفـظ القـرآن حتى سئم الكُتَّـاب والشيخ ، وأخـذ قلبه يتعلق بـالقـاهرة ، وبصفـه خـاصة الأزهـر الشريف ، وشرعت نفسـه تتـوق إلى الالتحـاق بهذا الصرح الكبير ، وظل ينتظـر بفـارغ الصبر عودة أخيه الأزهرى من القاهرة لكى يصطحبه حال رجوعه إليها .

ولكن أخيه أشار عليـه بأن يبقى بالقرية لمدة عام آخر يستعـد فيه جيدا للأزهر ، بأن يتعلـم أصول الفقة ، وبعضا من الشعر وكل ألفيـة ابن مالك ، وتم له ما أراد .

وانطلق ابن القـرية المتعطش للعلم والمعـرفة إلى المدينة ، حيـث الأزهر الشريف ، ينهل من العلم ، ويغترف من المعـرفـة على أيـدى كبـار العلماء ، والشيوخ الذين كانوا أعلاما فى عصرهم .

وقد كـانت دراسة طـه حسـين بالأزهـر شاقـة وعسـيرة وكـم انتقـد الشيخ الجليل الأزهر فيما بعـد خاصة وأن التعليم بعد فترة فيه يصبـح هامدا بلا حراك فلا إضافة ولا تجديد .

وقد عرف طه حسين أن بعض الطلبـة من أبناء الأزهر يعبرون البحر إلى أوربا فى بعثات علمية ؛ ولكن الأمر ينطوى على وساطات ، وشفاعات ، وهو لا يملك سوى القليل ، ويعتمـد على ما يقدمه إليه الأزهـر من طعام وكتب مجانيـــة .

ومع ذلك ، فقد جد الشاب الضرير ، واجتهد حتى أصبح علما بين رفاقه من طلاب العلم ، كما أجاد اللغة الفرنسية ، وبلغت عظمة ابن القرية الدرجة ، التى لم تجد إدارة الأزهر مناصا من إيفاده إلى فرنسا .

وهناك تحمل طه حسين الكثير ، وعانى الغربة ، وقاسى فقدان الأهل والوطن ، ومع ذلك استطاع بعد عامين أن يحقق قدرا عظيما من النجاح ، خاصة بعد أن التقى مع شابة فرنسية جميلة ورقيقة ، عطوف ، وحنونة سرعان ما أحبته وأحبها وأصبحت رفيقته فى العلم وفى الحياة فيما بعد عندما تزوجا .

وعندما عاد صاحبنا إلى مصر لا ليجلس داخل الأزهر ، أو يكون أستاذا فقط فى الجامعة وإنما ليدخل غمار الحياة السياسية والاجتماعية العاصفة فأخذ يخاصم فى السياسية ، ويحارب من أجل الإصلاح الاجتماعى ، ويناضل من أجل تحرير الفكر العربى ، كما كان له دور كبير فى تنقية المناهج الدراسية فى الأدب والتاريخ ، ونقل بعض المناهج الحديثة من الغرب .

ولعل صراحة وجرأة وإصرار طه حسين على مواقفه الوطنية ، وخاصة من القضايا الحساسة والشائكة فى بلد يحكمه الملك والإنجليز ، ويعانى الناس فيه أوضاعاً فى غاية الظلم والذل والهوان .. كل هذا أدى إلى إقصائه عن كلية الآداب حيث كان عميدها ، ومن هنا أطلق عليه المثقفون لقب « عميد الأدب العربى » لأن فيها خير تعويض عن عمادة الآداب ، كما أنها مرتبة أسمى ، ومكانة أعلى يستحقها الأديب والمفكر والمصلح الاجتماعى الكبير .

وما لبث طه حسين بعد ذلك أن عين مستشاراً فنياً لوزارة المعارف ، ثم تولى الوزارة قبل قيام الثورة .

وقد قـدم الفقيد العظيـم للمكتبة العـربية كتبـاً نقديـة ، وأعمالاً روائ
وقصصيـة قلما يجود علينـا الـزمان بمثلهـا ، فمن أعمالـه الخـالدة : « دعـ
الكروان » ، « الوعد الحـق » ، « شـجرة البؤس » ، « المعذبون فى الأرض »
« الأيـام » ، « أدب ونقـد » ، « حـديث الأربعـاء » ، « العصر الجاهلى
وعشرات القصص والـروايات والكتب النقـدية الأخـرى التى أثرت حيـاة
الثقافية أيما إثراء .

كما ترجمت معظم أعمال هذا الأديب العملاق إلى عدد من لغات العالم
كما مثل هو مصر فى كثير من المؤتمرات الدولية ، وحصل على أرفع الأوسمة
وأكبر النياشين ، وتم ترشيحه أكثر من مرة لنيل جائزة نوبل ، إلا أن الغرب ا
يكن وقتـذاك ليقدمها لأديب عـربى لأسباب كثيرة لا تخفـى على أحد ، وفى
مقدمتهـا الهيمنة الصهيونيـة المطلقة وقتذاك على كـافة المؤسسات الإعـلامية
والثقافية والعلمية فى أوربا .

وقد كتب عميد الأدب العربى الراحل ذات مـرة متحدثا عن مذهبه فى
الحياة ، ومصورا مـا لاقى من الصعاب ، وموضحا أسلحتـه التى استطاع أن
يُقهـر بها أقسى الظـروف ، ويتغلب بها على أشـد الصعـاب ، وقـد رأينـا أن
نسوق للقارىء ما قاله الراحل العظيم عن نفسه ، ومذهبه .

كتب طه حسين تحت عنوان « حب للمعرفة وصبر على المكروه » يقول :
« أكاد أعتقد أنى لم أعرف مذهبى فى الحياة إلا شيئا فشيئا ؛ لأن هذا المذهب
نفسه لم يتكون إلا قليلا قليلا فرضتـه علىّ ظروف الحياة وهى التى استخرجته
من أعماق طبيعتى استخراجا بعد أن كان كـامنا فيها كمون النار فى العود كما
يقول الشاعر القديم .

وأول ما استكشف من هـذا المذهب خصلة أرى أنها قـد صحبتنى منذ الصبـا وهى : الظمـــأ الشـديد إلى المعـرفة . الظمـــأ الـــذى لا يطفئــه اكتسـاب العلم ، وإنما يـزيده قوة وشـدة والتهابا . فأنـا لاأحصل نصيبا من المعرفـة إلا أغرانى بأن أحصل شيئـا آخر أبعـد منه مـدى وأشد منـه عمقا ، وليس فى هــذا نفســه شىء من الغـــرابة ، فإذا كانت حاجـــة من عاش لا تنقضى ، فحاجـة من ذاق المعرفة أشد الحاجـات وأعظمها إغراء بالتـزيد منها والإمعان فيها .

وأكبر الظن أن هذه الآفة التى ألمت بى فى أول الصبا هى التى أذكت فى نفس هـذه الجذوة ، فهى قد صرفتنى عـن كثير مما يشغل المبصرون وحـرمت علىّ ألـــوانـا من جـــدهم ولعبهم ، ويسرتنـى لمـا خُلقت لــه من الــدرس والتحصيل انفق فيهما من القوة والجهـد والنشاط والفراغ مـا ينفقه غيرى فيما يضطربون فيه وما يختلف عليهم من ألوان الحياة وخطوبها ، وما كلفت بمثل من الأمثال السائرة قط كما كلفت بهذا المثل القديم « لابد مما ليس منه بدٌّ » ، وما أحببت بيتا من الشعر القديم كله كما أحببت بيت أبى العلاء المعرى :

وهل يأبق الإنسان من ملك ربه
فيخــــرج مـن أرض لـــه سماء

لم يكن بى إذن من أن أوطّن نفسى على الفراغ لما أحسنه ، أو لما ينبغى أن أحسنـه من الـدرس والتحصيل مـــا وجـدت إليهما سبيـلا ، وقـد فعلت أو حـاولت أن أفعل فى آخـر الصبـا وأول الشبـاب ؛ ولكن مـا أسرع مـا رأيت وسـائل الـدرس والتحصيل عسيرة على أشـــد العسر ، فقـد كنت مستطيعـا بغيرى - كما يقول أبو العـلاء - « لا أذهب ولا أجىء ، ولا أغدو ولا أروح ،

ولا أقرأ ولا أتعلم إلا أن يعيننى على ذلك معين ، وكان طريقى إلى الدرس
والتحصيل فى تلك الأوقات ضيق محدود بدأ بى فى الأزهر وانتهى بى إ
الأزهر » .

ويقول طه حسين : « وكان علىّ أن أنفق العمر فى هذا المقدار المحد
من العلم الذى كان الأزهريون يبدأون منه ويعيدون ، ولا يضيفون إليه وقت
شيئا ولا يستطيعون أن يضيفوا إليه شيئا .

وهنا ظهرت خصلة ثانية من هذه الخصال التى ألفت مذهبى
الحياة ، وهى : الصبر والمغالبة واحتمال المكروه ما وسعنى احتماله ، فق
صبرت وصابرت واحتملت من ألوان المشقة فى الأزهر ما رضيت عنه ، و
سخطت عليه ؛ ولكن رأيتنى مدفوعا إلى شىء من المغامرة لم يكن يُدفَعْ إل
أمثالى فى هذه الأيام . فما لى لا اختلف مع بعض الأصدقاء إلى دار الكت
لأقرأ فيها من العلم ما لم يكن الأزهر يسيغه ، ولم أكد استكشف ع
القدماء من العرب وآدابهم حتى صرفت إليهما عن الأزهر صرفا ، رأيتنى ثا
على الأزهر ودروسه ثورة جامحة لم أحسب لعواقبها حسابا ، ثم لا أكاد اتص
بالجامعة التى أُنشِئَتْ فى تلك الأيام حتى أُكَلَّفْ بما كان يُلّقَى فيها من در
أشد الكلف .

وإذا خصلة ثالثة من مذهبى فى الحياة ، وهى : خصلة التصميم
اقتحام العقبات التى تعترض سبيلى إلى العلم مهما تكن أو أموت دون
وإذا أنا مصمم على أن أحصل علم الجامعة ثم أعبر البحر إلى أوربا لأطل
العلم هناك » .

ثم يمضى طه حسين فى شرح مذهبه فى الحياة وخصاله حتى يقول : « ولكن خصلة أخرى من خصال مذهبى فى الحياة تكشفها لى الظروف الجديدة التى عشت فيها منذ عدت إلى مصر ، وهى : خصلة الصراحة والجهر بالحق مهما يكن مرا ، والنضال فى سبيله مهما ثقل هذا النضال ، ومهما تكن عواقبه » .

وكذلك رأيتنى أخاصم وأثير الخصومات ، وأحفظ الصدور وأعزى الناس بنفسى وألقى من ذلك الجهد والمشقة والغضب فى وقت واحد من جانب البرلمان وصاحب القصر الملكى ولكننى لا أحجم ولا أتردد وإنما تزيدنى المحنة إقداما وتصميماً .

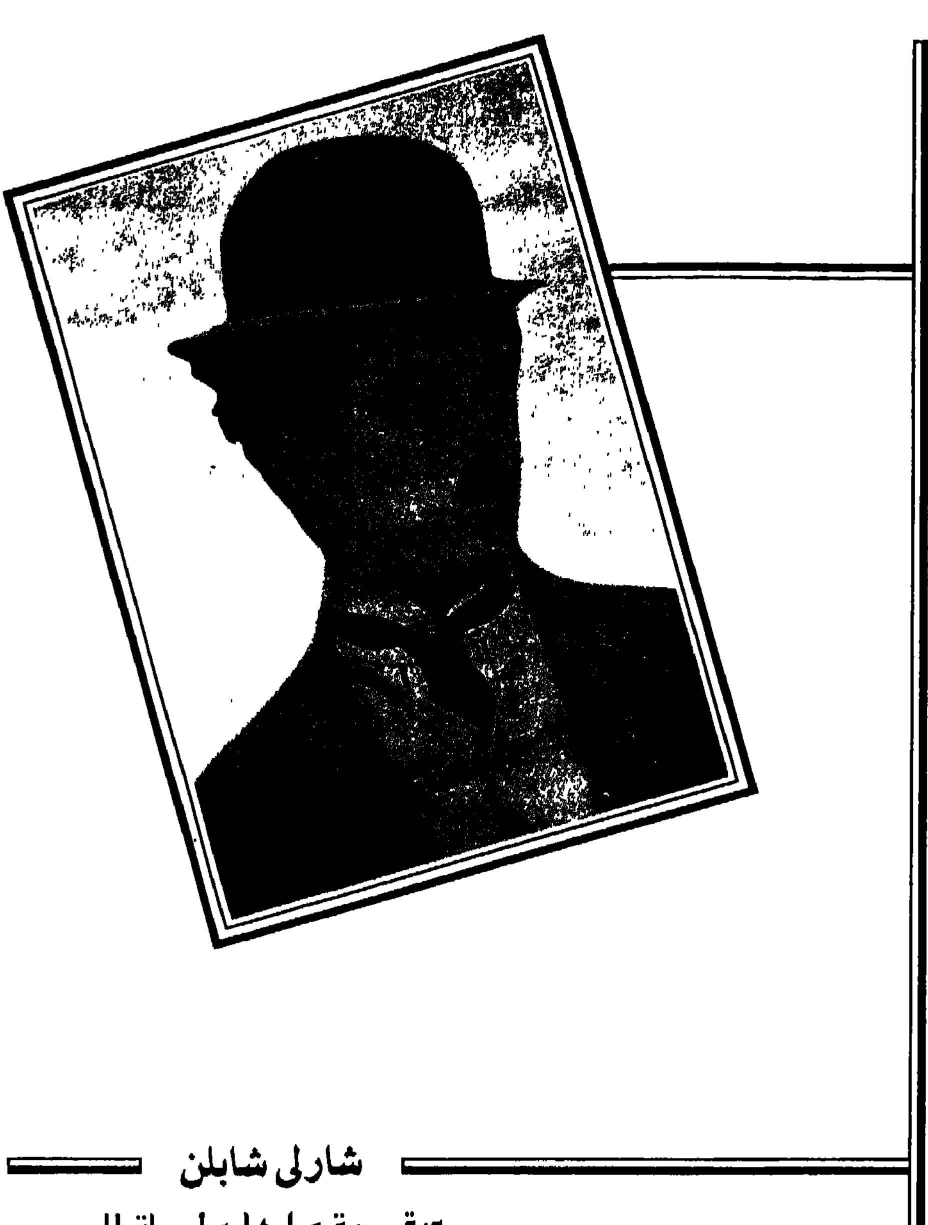
ثم أمضى فيما أنا فيه من الصبر والتصميم والمجاهرة بما أرى أنه الحق غير حافل بسخط الساخطين ولا رضى الراضيين حتى يبلغ الأمر غايته ، فأُقَصَى عن الجامعة ، وأُحَارَبْ فى الرزق ، وأتلقى ألوان النذير فلا يقل ذلك من عزمى وإنما يزيده مضاءً وتصميما ، وكذلك غالبت المصاعب والعقبات على اختلاف مصادرها ، وعلى اختلاف ألوانها وطبيعتها وأتيح لى التغلب عليها آخر الأمر ولو إلى حين .

وهنا تظهر الخصلة الأخيرة التى عرفتها من مذهبى فى الحياة إلى الآن ، وهى : حبى لأن أرى الناس جميعا مثلى فى الشوق إلى العلم والاستزادة منه والوصول إليه دون أن يجدوا مثل ما وجدت من المشقة ودون أن يُمتحنوا بمثل ما امتحنت به من ضروب العناء .

ويؤكد عميد الأدب العربى فى حديثه عن مذهبه فى الحياة الذى نشره – كما ذكرنا آنفا – فى كتاب « مذهبى » الذى أشرف بنفسه على إعداده وضم

عـدة مقـالات كتبهـا أصحـابها من نجـوم المجتمع فى شتى المجـالات عن مـذاهبهم .. يؤكـد طـه حسين أن خصالـه هـذه كانت وراء السعـادة التى نعمت بها نفسه ، وسر الـرضاء الذى يملـؤه عما قام به من أعمال فى حيـاته ، ومبعث راحة الضمير التى كان يأنس إليها .

□○□○□



شارلى شابلن

عبقـــرية وراءها مأســاة !!



لم يبلغ أحد ما بلغه هو من شهـرة ، ولم يصل أى فنان فى العالم ما وصل إليه هـو من نجاح سابق لم يسبق لـه مثيل . هو الذى إذا أراد أحـد أن يؤرخ للسينما فلا بد أن يمر من تحت عباءته ، وهو الذى إذا أراد أحد أن يتجاهله ، فمعنى ذلك أنه يفرغ هذا الفن العظيم من مضمونه ويجتثه من جذوره .

إنه شـارلى شابلن هـذا الممثل ، والمخرج العظيـم الذى فاقـت عظمته الفنية ، وعبقـريته السينمائيـة ، وقدراتـه ومواهبـه التمثيلية كـل الحدود « إنه الذى قـال أحد النقاد عليـه ذات مرة » « شابلن هـو الوحيد فى العـالم الذى يستطيع أن يقـدم فيلما هو مخرجـه وكاتـب قصته وبطلـه الوحيـد . أى فيلم يعتمد على شخص واحـد هو الوحيد الـذى يظهر فيه ويصنعه بيـديه .. إنه شابلن العظـيم » .

والمتتبع لأفلام شابلن العظيمة « أضواء المدينة » ، « العصور الحديثة » ، « مسيو فـردو » و « الدكتـاتور العظيم هتلـر » و « ملك نيويـورك » وغيرها يقف مبهورا أمـام عظمة هـذا العملاق وقـدرته الفـزة على التمثيل والإخراج والتأليف الموسيقى والغنائى .

ولم يكن شابلن مجرد فنـانا عظيما وإنما كان فيلسوفـا عظيما أيضا .. انظر إليه وهو يقول : الإنسان يحاول أن يسعد نفسه فلا يحظى إلا بالتعاسة ، ولكن من هـذه التعاسة يتـولد الضحك . ربما بسبـب فظاعة المأسـاة ، ربما بسبب تصـارع الأضـداد ، ربما بسبب تجاوز التعـاسـة لحد الحزن ، حيث يصبح الضحك هو البـديل المنطقى .. ربما أيضا ، ويبـدو أن شابلن كـان يتحدث

عن نفسه ومأساته الشخصية عندما كان يردد هـذه الكلمات الموجعة التى لا تصدر إلا عن نفس مضطربة ، ووجدان متأجج ، وعقلية قهرها الألم .

والحقيقة أن وراء هـذا النجم اللامع فى سماء الفن والذى لم يـزل نـوره يسطع فى ليالى هوليـوود حتى يومنا هذا .. وراء هذا العملاق مأسـاة إنسانية بطلها الـوحيد هـو الفقر .. ، ربما نلمح « شخوصاً أخرى » فى هـذه المأساة كالبـؤس ، والشقاء ، وتعـاسة الحظ فى البـداية إلا أن الفقر يبقـى هو البطل الرئيسى الذى يلتف بقوة حول عنق شابلن الطفل حتى كاد يختنق .

وقصة شـابلن هى قصة إنسـان عظيم استطاع تحويـل الهزيمة إلى نصر سـاحق ، والشقـاء إلى سعـادة ، والفقـر المدقع إلى غنى فـاحش . إنها قصـة الإنسـان الذى انهالت عليـه الأحجار فخـرج من تحتها شـامخا متحديـا كل القوى التى اجتمعت للقضاء عليه .

يقول شابلن عن نفسه : إن الرسام العظيم « بيكـاسو » فى حياته مرحلة تعيسة اسمها « المرحلة الـزرقاء » أما هو فقد بدأت مع ولادتـه مرحلة اسمـها المرحلة الـرمادية .. مرحلـة فى لون الضباب والهباب .. فى لـون اليأس والفقر والبرد والجوع .

فقـد ولـد شارل شـابلن لأب من أصـل فرنسى ، وأم غجـريـة سليطـة اللسان لا تتوقف عـن الثرثرة ، والسباب طيلة فترة تواجدها فى البيت .

أما والده فكـان ممثلا من الدرجة الثالثـة ، ورغـم مواهبـه ، وإمكـانياته إلا أن شخصيته غير السـوية ، وأخلاقه السيئـة كانت سببا فى عدم تقـدمه ، كما أنه كان مدمنا للخمر والنساء مقامرا رغم دخله المحدود .

وتقول أمه ملخصة مأساة أبيه : « إنه يشبه نابليون » عقلية جبارة ، وغرور لا حد له ، وفقر وغطرسة .

ولأن الأب كان غائبا عن البيت معظم الأيام وقلما يخرج من جيبه مليما واحدا يدفع الجوع أو البرد عن الصغير وأمه فى ليالى الشتاء القارسة ، فقد اضطرت أم شابلن إلى استغلال مواهبها فى الغناء لكسب بعض ما يعين على الحياة .

ولكن الأمور لم تستقم حتى مع عمل الأم فبعد عام من ولادة شابلن ، انفصلت أمه عن أبيه لاستحالة الحياة بينهما ، وأعقبت هذا فترة ركود وأزمة اقتصادية طاحنة ، وتوقفت الأم فترة عن العمل ، وبدأت رحلة الأسرة الصغيرة مع الشقاء ، والبؤس والجوع والبرد والحرمان .

وتركت الأم شقتها إلى غرفة صغيرة مشتركة مع أسرة أخرى لعجزها عن دفع الإيجار للشقة ، وكم كانت تبيت الليل تبكى هى وصغيرها على حالهما ، وهكذا أصبح شابلن يتيما ووالده العربيد على قيد الحياة .

ومن الأحداث التى دفعت شابلن مبكرا إلى الساحة ومهدت لاحترافه الفن بعد ذلك ، فهو ما جرى ذات يوم عندما صحبته أمه معها إلى المسرح المتواضع الذى كانت تغنى عليه للسكارى ، والمخدرين ، ففى ذلك اليوم ، وبينما شابلن يقف وراء الكواليس يقلد أمه وهى تتمايل وتتلوى وتغنى فى ضيق ، وزهق واضح ، أُعجِبَ به صاحب المسرح ودفع به فى نفس الليلة ليقلد أمه .

ورغم غرابة الموقف ، ورغم أن شابلن كانت ترتعد أوصاله إلا أنه أظهر خفة ظل لا مثيل لها حتى إن الناس ألقت عليه نقودا كثيرة .

والطـريف أن شابلن كـان كلما ألقيت عليه نقـودا أوقف عملية الغنـاء والتقليد ليجمعها ثم يواصل الأمر الذى جعل الناس تضحك أكثر وأكثر .

ولم يقف الأمـر عنـد هذا الحد فقـد خشى صـاحب المسرح أن يستبقى الصغير شابلن النقود لنفسه ثم يفر هاربا عقب العرض ، فخرج على المسرح يجمع النقود ، فهجم عليه شابلن وأمسك بتلابيبة حتى تأكد أنه أعطى جميع النقود لأمه ثم واصل الغناء .

ومن هنا بـدأ شابلن يظهر مـواهبه وقدراتـه التمثيلية الفذة وخـاصة فى مجال الكـوميـديـا ، وأصبح يخرج على المسرح كل ليلـة يقـدم اسكتشـات ضاحكة ومواقف كوميدية .

ولم تكن أمه راضيـة عن عمل الصغير الذى لم يتجـاوز التاسعـة بالفن خوفا من أن ينتهى مصيره كما انتهى إليه مصير والـده ، وحاولت منعه مرارا ، وكانت تقول له : « سوف تتحـول إلى الخمر والنساء وتتسول إن شاء الله مثل أبيك » ، وظل شابلـن على هذه الحال حتى أصبح عضوا أسـاسيا فى الفـرقة المتواضعة .

كما قـام شـابلن بتأليف « النكت » أو تحـوير ، وإدخـال تعـديلات على« النكت » المعـروفـة ، وخـاصـة السيـاسيـة لتجعل النـاس تـرقص فى مقاعـدها ، ومع هذه الفرقة المتواضعـة التى تعمل بها أمه سافر إلى فرنسا ثم إلى أمريكا ، وهناك كانت الصدمة الأولى .

فقـد اكتشـف شـابلن فى نيويورك منـذ أول عـرض له أن الأمريكين لا يضحكون للنكـات التى يرقـص لها الإنجليز واكتشف أنـه على الفنان أن يدرس الشعب الأمريكى ليعرف كيف يتعامل معه أو يقدم له فنا .

وبالفعل بدأ شابلن يخط أولى خطواته بنجاح وسرعان ما انتقل إلى هوليوود ، وهناك ابتسم له الحظ حيث عمل مؤلفا ، ثم مساعد مخرج ، ثم مخرجا .

وبدأت أولى إنجازات العظيم شابلن التاريخية ، وأعظم بصماته الواضحة على هذا الفن السابع . فقد استطاع شابلن أن يرتقى بالسينما الصامتة ، ويقدم تحفا نادرة لا نزال نشاهدها ونسعد من أعماق قلوبنا حتى الآن ، وتمكن شابلن من توظيف الحركة فكان أروع من استخدم لغة الحركة السينمائية .

وقد ابتكر شابلن لنفسه حركته التاريخية المشهورة التى كانت تماثل حركة « الروبوت » أو الإنسان الآلى الموجود بيننا اليوم .

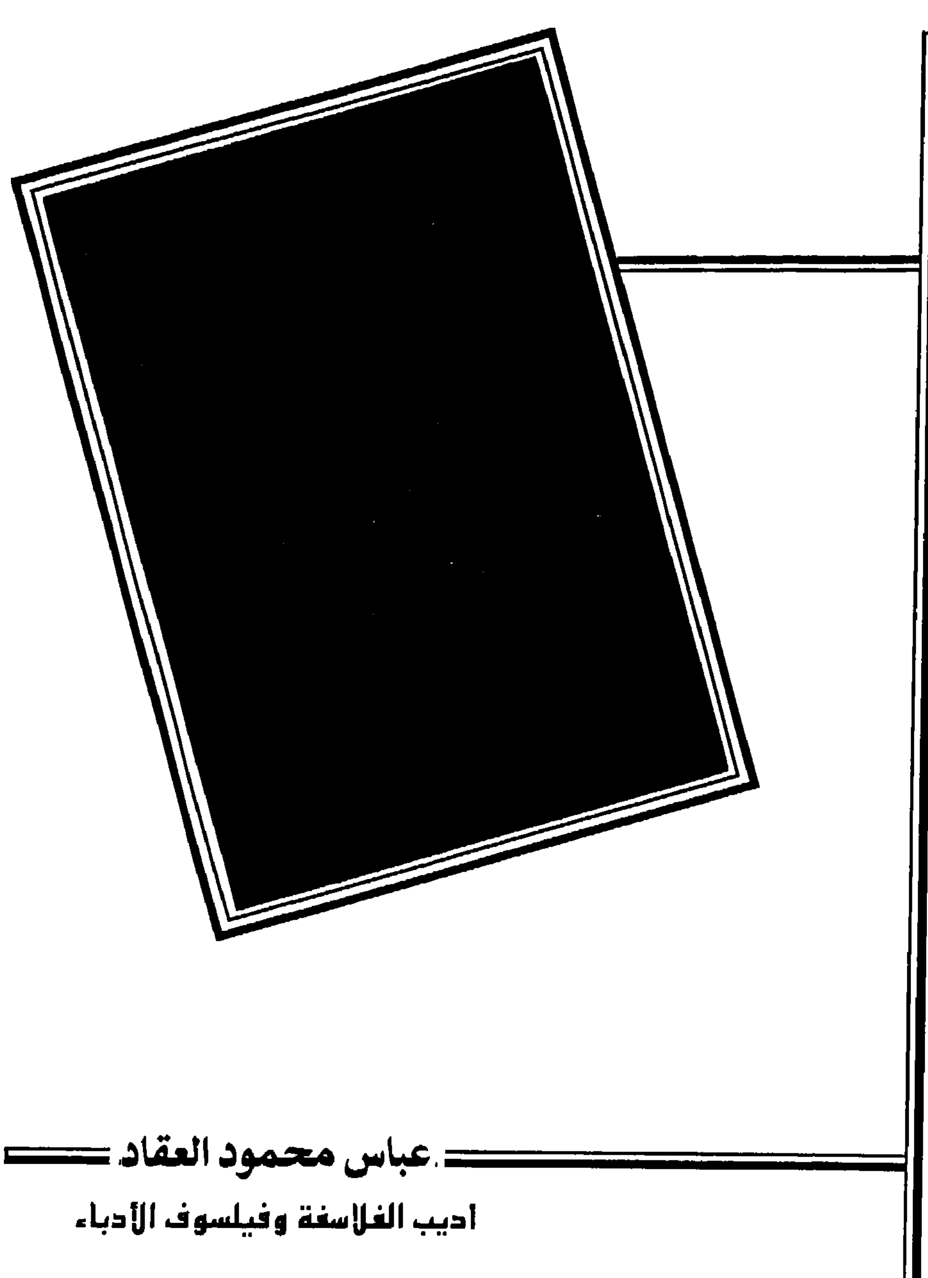
وقد تزوج شابلن أربع مرات كانت آخرهن ابنة الأديب الأمريكى العملاق « يوجيه أونيل » وقد فاز شابلن بجائزتى أوسكار الأولى فى بداية الخمسينات وثالثة عام ١٩٧٣ .

ولم يكن شابلن مجرد فنان عظيم ، وإنما كان مفكرا أيضا ، وكان شجاعا ، وجريئا ، فقد تجرأ العملاق حتى على المجتمع الأمريكى الذى يقيم فيه ، ويرتبط فيه بكل أعماله ، ومشروعاته .. انتقد أوضاعا كثيرة ، وثار على أوضاع كثيرة .

ولم يسلم شابلن من الأذى فقد دفع ثمن شجاعته ، وإيمانه برسالة الفن غاليا حيث اتحد مع بعض الأمريكيين المتعصبين بمعاداة أمريكا ، ولم تجد السلطات هناك مفرا من طرده بعد أن ثارت بعض الجماهير عليه بفعل ما نشرته الصحف على لسان منتقديه .

واتجه شـابلن إلى سويسرا وظل هنـاك عشرين عـاما حتى عـام ١٩٧٣ واتجه إلى أمـريكا . ليبقى هنـاك حتى يوافيـه الأجل فى عام ١٩٧٧ ، وهـو فى كامل صحته وحيـــويته ، حتى إن الأطبـــاء قـالوا : إنه مات من الصـــحة التى يبـدو أنها تدفقت فجأة بقـوة فكـانت أقوى من حجمـه الضئيل فمات محترقا بها .

□○□○□


عباس محمود العقاد
اديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء



كان أبـوه مجرد موظف متواضع بإدارة المحفـوظات بمديريـة أسوان . كان بـالكاد يجد مـا يعينه هـو وأسرته على تكـاليف المعيشة وأعبـاء الحياة ، وكان كل ما يتقاضاه هـو ستة جنيهات فقط فى مطلع كل شهر ، ولم يكن له أى مـورد آخـر للـرزق ، ومع ذلك فقــد كـان الـرجل حـريصـا ، دقيقـا ، ومتحفظا للـدرجة التى كان يحسـده عليها أقـرانه لأنه يستطيع تـدبير أمور معيشته ، وفى حدود راتبه الضعيف بشىء من الحكمـة . أما أمـه فقد كانت سيدة فاضلة طيبة القلب ليس لديها مـا يشغلها عن رعاية أطفالها ، ومنحهم كل ما تملك من حب وحنان وأمومة .

بين أحضان هذه الأسرة ، وفى صعيد مصر الـدافىء ولد المفكر والأديب العربى الكبير عباس محمود العقاد أحـد عظماء عصره الذين أصبحوا أعلاما مضيئة فى سماء مصر والعرب والأمة الإسلامية جمعاء .

ومنذ اللحظـة الأولى لميلاد العقـاد فى الثامن والعشريـن من يونيـو عام ١٨٨٩ ، وعلامـات النبوغ والـذكاء تبـدو عليه بـوضوح ، ومـا أن بدأ ينمـو ويكبر حتى أدرك أبواه أنـه طفل موهوب ، ذو عقليـة تفوق ما عليه أقـرانه ، فهو حاد الذكاء ، شديد النظرات الفاحصة ، عميق التفكير ، قوى الإدراك .

وأمام ما أظهر الصغير من مواهب وقدرات قرر الأبوان إنفاق آخر مليم معهما حتى تتم رعاية الصغير على أفضل وجه ممكن ، رغم أن « العين بصيرة - كما يقولون - والأيد قصيرة » .

وشب صاحبنا ، معتداً بنفسه ، واثقا فى قدراته ، معجبا بقدراته ، فخ
بملكاته .

وفى الخامسة عشرة من عمره انتقلت أسرة العقاد إلى القاهرة . وكـ
العقاد لا يحمل حتى ذلك الوقت سوى البتدائية ، وبدلا من استكم
دراسته فضل الاكتفاء بهذا لقدر المتواضع وتعليم نفسه بنفسه حتى يـو
لأسرته ما يدفعونه له ، ولا يكون عبئا ثقيلا على مالية أبيه المتواضعة للغاية

وبدلا من أن يكمل العقاد تعليمه ، وبدلا من أن يلتحق بوظية
حكومية أخذ يتفرغ للقراءة والكتابة ، ويحاول أن يحيا مما تدره عليه ، وعا
منهما ولهما حتى غاية عمره .

والحقيقة أن العقاد كان موسوعة لا يمكن أن تتسع عدة كتب للحدي
عنها، وكان عبقرية لا يمكن أن تفيها الكلمات حقها . وقد شغل الناس
عصره عن عظماء كثيرين كان على الساحة معه ، حتى إنهم أحيانا لم يكو
يسمعوا سواه ، ولا يقرأوا نقدا لسواه .

كان العقاد مفكرا جادا ، وكاتبا متحفظا ، وأديبا ملتزما ، وناقدا متشد
جعل من قلمه قذيفة ضد كل من يحيد عن قيم الحق والعدل والجمال .

وقد فاقت شهرة العقاد كمفكر وناقد وكاتب شهدته كأديب وشاعر
ورغم أن عبقرياته الرائعة « كعبقرية محمد » و « عبقرية خالد » و « عبقر
عمر » وغيرها قد زاع صيتها أكثر من دواوينه إلا أن شعره كان رائعـ
غاية الروعة .

وقدم العقاد للمكتبة العربية ٨٥ كتابا فى الفن والأدب والعلم والمعارف
الإنسانية والإسلامية إضافة إلى دواوينه الرائعة « يقظة الصباح » و « وحـ
الأربعين » و « أشجان الليل » و « أعاصير مغرب » .

وكما كانت أعمال العقاد النقدية علامة مضيئة فى سماء الأدب ، كانت أعماله الأدبية والشعرية أيضا بصمة واضحة على الساحة فكانت جيدة المضمون ، عظيمة الموضوع ، سليمة الرؤية ، متماسكة البنيان . كما كان أسلوبه متميزا قويا رصينا يذكرنا بالعرب الأقدمين .

ويمكن أيضا أن نلمس فى شعر العقاد أناشيد عذبة تفيض بالأحاسيس والمشاعر الصادقة التى تعبر عن وجدان صاحبها ، كما كانت تغلب عليه النزعة الروحية .

وقد أسس العقاد مع عبد القادر المازنى وعبد الرحمن شكرى مدرسة « الديوان » ، وهى إحدى تيارات التجديد فى الشعر العربى الحديث بعد ما وصل إليه حال الشعر من محاكاة وتقليد ، وتحولت عملية البعث والإحياء إلى استغراق شبه كامل فى السير على نهج القدماء رغم اختلاف البيئة والموضوعات .

وقد أقام العقاد صالونا أدبيا يُعقد كل يوم جمعه ، ويضم نجوم الفن والأدب والثقافة ويلقى فيه الجديد من الشعر ، وتناقش فيه مختلف القضايا الفكرية والسياسية والأدبية فى عصره .

وقد كان العقاد زعيما وطنيا ، ومناضلا سياسيا أيضا ، وقد وطد علاقته بسعد زغلول زعيم الأمة ، ومؤسسى حزب الوفد أعظم التنظيمات السياسية فى تاريخ مصر الذى لم يكن يضم سوى النبهاء ، والمثقفين من أبناء الأمة بغض النظر عن دراستهم أو تعليمهم ، فكان يضم كل جموع الشعب وكافة طوائفه .

وقد أسهم العقاد بكتاباته أيضا فى تحريك ثورة ١٩١٩ ، كما كان صديقا للزعيم الوطنى العظيم مصطفى النحاس وحارب من أجل الدستور .

ومن مواقف العقاد الوطنية الشهيرة جرأته فى مهاجمة الملك فؤاد وفضحه أمام الشعب وتحقير شأنه أمام سطوة المصريين البسطاء القادرين على إسقاطه ، وقال فيه العقاد قولته الشهيرة التى دخل بسببها السجن قرابة العام « إن شعبنا قادر على أكبر رأس يتعرض لحرياته » .

وقد دافع العقاد عن الإسلام دفاعا مجيدا فى مقالته وفى كتبه « حقائق الإسلام وأباطيله » ، « ما يقال عن الإسلام » و « مطلع النور » ، وقد حاول العقاد جاهدا صياغة أيديولوجية إسلامية يواجه بها المسلمون المذاهب والفلسفات الواردة من بيئات غير بيئاتنا ، وثقافات غير ثقافاتنا كالاشتراكية والرأسمالية .

وقد تناول العقاد قضايا جادة وطرق موضوعات ذات طبيعة حساسة وهاجم التخلف والركود وأوضح موقف الدين القيم من الإنسان والقدر والشيطان والعبادة والمرأة .

ومن أعمال العقاد الهادفة فى هذا الصدد « الإنسان فى القرآن » و « المرأة فى القرآن » و « الفلسفه القرآنية » و « الله » حيث طاف بأفكار البشرية القديمة والحديثة عن العقائد فألم بها وناقشها ، كما تجول بين الديانات السماوية حتى انتهى إلى الإسلام موضحا عقيدته فى عمق ودقة ، ومبينا ما فيه من سمو وصدق .

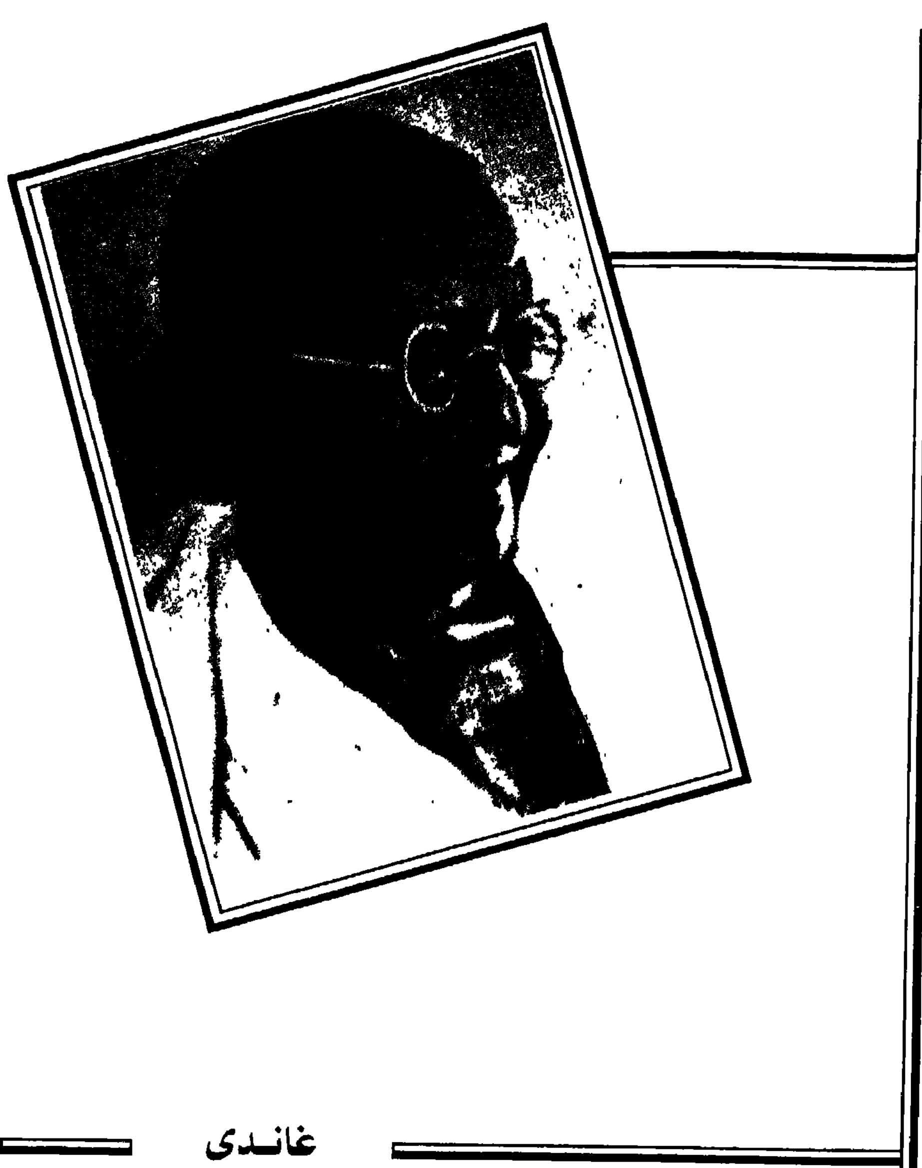
وللعقاد موقف من قضية الأخلاق التى لطالما شغل وعنى بها الفلاسفة والمفكرين على مر العصور وكان – رحمه الله – يرى أن الأخلاق تعتمد على الضمير الذى قوامه الصراحة والوفاء والإخاء والسلام .

كما كـان العقاد يرى أن الأخــلاق لا تعنى « الأنانيــة » ، وإنما تعنى « الغــيرية » .

وهكـذا ظل العقاد حتى آخـر لحظة مـن حياتـه التى جعلها وقفـا على التحصيل والمعـرفة ، والكتابـة والتأليف والنقـد حتى اثرى حيـاتنا الفكـرية والثقافيـة فى كل لون ، وضرب ولعـل هذا هـو الذى دفع الفيلسـوف والمفكر الـراحـل العظيم الـدكتــور زكى نجيب محمـود إلى أن يُطلق عليــه « أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء » . أو قال عنه الأديب الراحل محمود عبد القادر المازنى « بحر بلا انتهاء » .

لقـد رحل العقاد فى الثـالـث عشر من مارس عـام ألف وتسعمائة واثنين وستين ولكنه لا يزال حيا نهتدى به جيلا بعد جيل ، ورحل الرجل الذى كان عصــاميًّا فى حيـاته ، اعتمـد على جهده ، ولم يعتمـد على جهد غيره ، وكـان عصاميا فى ثقافته وأدبه وعلمـه ، فلم يعتمد على مدرسة أو جامعة وإنما علم نفسه بنفسه . لقـد كان الراحل أكثر من عظيـم ظهر فى عصر العظماء الكبار رغم أنه بدأ من تحت الصفر !!

□○□○□



غانـدى

لسان حال الضـمير الإنسانى



الحب بين الأفراد هو أكسير الحياة ، كما أنه وقود التقدم ، فأنا أعتقد أنى أصل إلى أقصى ذروتى بـانـدماج نفسى فى نفـوس الآخـرين ، وليس حبى لرفاقى متوقفاً على اتفاقهم معى أو اتباعهم لى ، إذ أنى بتسم لمن يعارضنى ، فعدم الولاء لآرائى هوَّة يسهل علىَّ عبورها بالمودة والحب .

هكـذا كتب« المهـاتما غانـدى» ذات يـوم عن فلسفته فى حيـاتـه والتى جعلت منه رمزاً للسمو الإنسانى فى أعلى صورة ، ونموذجاً للفكر المستنير فى أوج عظمته ، ومثالاً للحرب بالسلام فى قمة تأثيرها وفعاليتها .

غـانـدى هو زعيـم من نوع خـاص ، إنـه لم يلجأ إلى السـلاح ولم يطلق رصاصـة واحدة على أعدائه ، وإنما ابتـدع لنفسه ولوطـــنه إسلوباً فـريداً من نوعـه ، لم يألفه التاريخ من قبل ، إسلـوباً يعتمد على إلحاق الخير بـالآخرين بدلاً من الشر ، حتى ولو كـان الآخر هو العدو، ورغم عـدم تصور مثل هذه المعادلة الإنسانيـة الغريبة إلا أن غاندى طبقها بنجـاح ، وحرر بها ثانى أكبر شعوب العالم بعد الصين .. بلاده الهند.

يقـول غـانـــدى : «الحضـارة كما أعتقـد هى قبـول بل تشجيع أوجـه الاختلاف ، وبذا تصبح الحضارة تعبيراً مرادفاً للديمقراطية. فالشدة والعنف والضغط والإكـراه كلها على النقيض من الحضـارة والديمقـراطية ، والشـدة تولـد الخوف ، والخوف يخلق الرجـل الوضيع ، وقد حـاولت طول حيـاتى أن أُقصِىَ الخوف لأنى إذا خفت لم أعد حراً » .

وأعتقد أن الخوف يلازم الغنى ، فقلب المرء حيث توجد أمتعته الدنيوية ، ولست أقصد بالأمتعة الدنيوية المال والعقار فحسب ، بل السلطة والصيت ، وحتى جسدى هذا ، وأنى مهما قدرت لهذه من قيمة فلا أتردد فى التنازل عنها ثمناً لمبادئى ، والتهجم على مبادئى هو إذن كفيل بأن يجعلنى أرتد وأتذلل ، ولست ممن يعارضون الغنى ولكن من معارضى الغنى الذى يجعل المرء عبداً وليس لأى شىء أمتلكه أن يعترض أعمالى ، وإنى أصوم إذا كان ما أصوم من أجله أهم عندى من الحياة نفسها ، وأزهد لأن ما أزهد فيه يهبنى متعة مما أحصل عليها من وراء الزهد .

وعندما قُتِلَ غاندى فى اليوم الثلاثين من شهر يناير عام ألف وتسعمائة وأربعين ، وقف العالم كله حداداً على فقيد الإنسانية الذى كان ضميرها والمتحدث بلسانها ، وتحولت الهند إلى بؤرة صراع ، وأرض منازعات لاقِبَل للهنود بها ، حتى انقسمت على نفسها ، وتفتتت رقعتها وتحولت إلى دول وولايات.

ولكن من هو غاندى الذى لم يزل حديث العالم كله حتى الآن ، وكيف صعد الرجل من أقل نقطة سلم المجد ، حتى بلغ كل هذه الشهرة ، وكل هذا الاحترام؟!

ولد «موهانداس .ك. غاندى» فى عام ألف وثمنمائه وتسعة وستين فى أسرة عادية متوسطة الحال لم تكن تطمع فى شىء إلا أن يكون الغلام قادراً على أن يعول نفسه بنفسه ، ولكنه كان أكثر اهتماماً بنفسه من أبويه، وأقوى عزيمة ، وأشد رغبة ، وأقصى ذكاء ،مما جعله يتفوق على أقرانه ، حتى أبناء الطبقات الغنية من أصحاب السلطان والنفوذ !

وقد كان غاندى أثناء دراسته محل إعجاب جميع أساتذته الذين استحسنوا خُلُقَّه ، وأثنوا على علمه ، وأشادوا بقدرته الفذة على الحوار والإقناع وعرض وجهة نظره التى ربما كانت تختلف أحيانا مع آرائهم.

واستمر غاندى على هذه الحال حتى أصبح محامياً شاباً شديد الحجة ، قوى الإيمان بما يتولاه من قضايا ، مستمياً فى دفاعه عن الفقراء والمساكين الذين لايجدون مايقدمونه لرجال القانون حتى يرفعوا عنهم الظلم ،ويردوا عن صدورهم عدوان المحتل الغاصب الذى لم يكن جنوده يتورعون عن إطلاق الرصاص على الهنود دون وازع من رحمة أو ضمير.

وفى ذلك الوقت بدأ الناس يلتفون حول غاندى الذى أخذ يظهر كزعيم من نوع خاص ، وقائد له فلسفة خاصة ، وأسلوب متفرد لم يألفه الناس من قبل ، فقد طرح غاندى فكرة «المقاومة السلمية» أو «المقاومة السلبية» كطريق لخلاص شعبه من الاحتلال البريطانى .

كما ابتدع غاندى إسلوباً رائعاً للمقاومة يمثل تعبيراً ذاتياً عن فلسفة حياتية جديدة فى تاريخ البشر تعتمد بالدرجة الأولى على قهر النفس والذات وعلى ممارسة سياسة «اللاعنف» .

ومما زاد من قناعة غاندى بهذه المقاومة السلبية هو عمله عقب تخرجه لفترة بجنوب أفريقيا حيث شهد أسوأ عملية إبادة بشرية وإنسانية فى التاريخ ، حيث رأى المستعمر الأبيض يقتل ، ويذبح ، ويسجن ، ويصلب السكان الأصليين من السود أصحاب الأرض ، وينهب ثرواتهم ، بينما هم يقاسون الجوع والبرد والمرض والقهر والظلم .

وقد انخرط غاندى بعض الوقت مع المقاومة السوداء هناك ، وقُبِضَ عليه أكثر من مرة ، وكاد يفقد حياته أكثر من مرة بسبب مناصرته للسود المظلومين ، ووقوفه إلى جانبهم ضد المستعمرين.

لقد كان غاندى فى حياته يقود ثورة المحرومين والمستضعفين على طريقته الخاصة ، وقد أتت هذه السياسة ثمارها ، فقد حرض غاندى الهنود على مقاطعة المنتجات الإنجليزية مما جعل مصانع بريطانيا توشك على الإفلاس حيث إن الشعب الهندى كان يمثل المستهلك الرئيسى لهذه المنتجات .

كما حاول غاندى أن يفضح الاحتلال بعرض بشاعات ما يرتكبه جنوده من مذابح وحشية ، وعمليات إبادة جماعية ، وشتى صور القهر والظلم .

وما أن شعر البريطانيون بمدى ما يمثله غاندى لهم من خطر حتى أدركوا أن هذه المقاومة السلبية سلاح مؤثر يمكنه أن يقهرهم ، وأن هذه المقاومة التى كانوا يسخرون منها فى البداية قد بدأت تقلب عليهم العالم ، وتشعل فتيل ثورة لم يروا مثيلاً لها من قبل، ولم يألفونها فى بقية مستعمراتهم .

ومن هنا ، بدأ البريطانيون يضيقون الخناق حول غاندى ، وانتهى الأمر بإيداعه السجن هو وزوجته «كاسترى» لتشتعل نار الثورة فى الهند ، ويثور العالم كله من أجل هذا الزعيم الروحى الذى يحظى باحترام بالغ فى شتى أرجاء العمورة التى أصبح فيها علماً ونجماً ومفكراً ومصلحاً عظيماً .

وفى السجن يفقد غاندى زوجته «كاسترى» التى ماتت أثناء كفاحها معه بعد أن آمنت به كما فعل ملايين الهنود الذين وقفوا خلفه .

ويضطـر البريطـانيـون لإطلق سراح غـاندى أمـام ثـورة العـالم كلـه ، ويـواصل كفـاحه ، ويضرب عن الطعـام حتى يكـاد يمـوت من أجل دعم قضيه بـلاده ، وكجزء من المقـاومة السلميـة أو السلبية التى ابتـدعها وحتى يحافظ على يقظة وحماس ونضال أبناء وطنه .

ويظل غاندى فى مقاومته هذه حتـى يحصل لشعبه على ما يريد ، وينزل المستعمـر على رغبـة أصحـاب الأرض ، ويمنحهم الاستقـلال ، ليقـرروا مصيرهم بأنفسهم .

وهكذا دخل التاريخ أحد العظماء الذين كرسوا حياتهم لحماية الإنسان من الظلم ، والقهـر ، والبطش ، واعتمد لـذلك أسلوباً لايعتمـد على سفك الدماء ، أو إزهاق الأرواح ، وإنما على الحب وإقنـاع الآخر بجدوى السلام ، وفعالية نبذ العنف ، وقد عبر غاندى عن نفسه جيداً عندما قال:

« إنى رجل عـادى خاضع لما فى من مـواضع الضعف ، وإذا حق لى أن أتحدث عن نفسى فـالفضل فى ذلك لتجـاربى النـاجحة فى الحيـاة فحيـاتى عمل ، وأعتقـد أنـه يجب على أن أطبق فيهـا ما أومن بـه ، ولقـد حـاولت أن استبعد الصراع بين ما أعتقـد وما أقوله وما أفعله ، هـذا هو الحق .. ولاأدعو إلى غير ما أعمل ، ونتيجة ذلك تكامل يتـولد عنه انسجام فى داخلية نفسى ، وإذا واجهت شراً فلن أقف مكتـوفـاً أقلب كفـاً على كفٍ معبراً عن أسف لاأشعر به كى أخلص بذلك نفسى من تأنيب ضميرى ، بل إنى أعد نفسى مسئولاً عما فى العالم من مساوئ إذ أنا لم أحاربها » .

□○□○□




أبو القاسم الشابى
شاعر التفاؤل والتشاؤم

لم تتنكر الحياة لأحد كما تنكرت له ، ولم تتوال الخطوب ، وتداهم المصائب أحد فرادى ومجتمعات كما كان الحال معه . إن حياته مأساة كبيرة انتهت بموت مفاجئ بسبب أمراض لم يفلح الأطباء فى السيطرة عليها ، وما بين البداية والنهاية المبكرة لحياة هذا العبقرى الفذ هناك تراث خالد خلود البشرية نسجت عبقريته خيوطه ، قبل أن تودع الحياة فى الخامسة والعشرين من العمر الذى لم يكتب له أن يمتد أكثر من ذلك !!

إن حياة الأديب والشاعر الوجدانى والفيلسوف المتأدب «أبو القاسم الشابى» قصة غريبة غاية الغرابة حول صاحبها جميع الهزائم إلى نصر مدوى ، وإنجاز هائل ، حتى رغم سنين عمره القليلة .

ورغم مالقيه هذا الشاعر العظيم من مصائب ، وخطوب ، ومتاعب ، وهموم لاقِبَل لشاب فى مقتبل العمر بها إلا أنه حول اليأس إلى أمل ، والتشاؤم إلى تفاؤل ، وعندما وجد نفسه على شفا السقوط والاستسلام ، قاوم ، وصمد ، واتخذ قراره بالبقاء والعمل دون أن ينظر إلى أيامه المعدودة فى الحياة .

إنه من هؤلاء العباقرة القلائل الذين تمسكوا بالحياة وابتسموا لها ، وتغنوا بها ، حتى إنه أطلق على ديوانه الذى ضمن فيه كل ما كتبه من أشعار «أغانى الحياة» .

ولكن وطأة المرض وسجن الفراش ، والإحساس بدنو الأجل كان يقتحم عليه تفاءله من وقت لآخر ليتمنى الموت حتى يتخلص من آلامه

وأحزانـه ،لقد كانت حيـاة أبى القاسم الشـابى تتأرجح بين الحياة والموت. التفـاؤل والتشـاؤم.. الأمل واليأس.. الحب والكـراهيـة.. اللـذة والألم. السعادة والتعاسة.

ووسط كل هذه الصراعـات النفسية ، والمعانـاة الجسدية التى تـولدت عن مرض القلب اللعين ثم الرئة ، عـاش أبو القاسم – ورغم ذلك – لم يحر الإنسانية من شريان حيوى يمدها بأحد موارد الشعر الروحانى السامى.

وعندما نلقى نظرة سريعة على حياة هـذا الشاعر العظيم ، نجده إنسانا عاديـاً من حيث النشأة حيث ولد فى قـرية «الشابيـة» إحدى ضـواحى بلد «توزر» بتونس فى السادس والعشرين من فبراير عام ١٩٠٩ .

وكـان أبـوه من خـريجى الأزهـر الشريـف ، فـاهتم بتحفيظـه القـرآن وتعليمه اللغة العربية ، والتحق بجامعة الـزيتونة وتخرج من كلية الحقوق عام ١٩٢٩ بعد أن كون لنفسه ثقافة عظيمة من خلال إطلاعه الواسع .

وفى مطلع عام ١٩٣٣ ، بعـد تخرجه بأربعة أعوام فقط نشر أبـو القاسم قصيـدة لأول مـرة بمجلـة «أبو للـو» فى مصر عنـوانها «صلـوات فى هيكل الحب» التى كانت بمثابة ثورة فى عالم الشعـر ، وإيذاناً بإنضمام شاعر عظيم إلى الذين سيخلدهم التاريخ من شعراء العربية المبدعين.

ففى هـذه القصيدة الـرائعة أو «الصلـوات» قصة حب عنيفـة عاشهـا الشاعر ، وخرج منها بمأساة أخـرى تضاف إلى سجل حياته الحافل بالمآسى فقد فقدها كما فقد أبيه وكما فقد ذويه وكما فقد صحته .

فى هذه القصيدة قصة الحب التى عاشها بكل جوارحه مع محبوبته التى لم يكن ينظر إليهـا كما ينظر غيره من الرجـال إلى محبوباتهم ، وإنما كان يـراها

هيكلاً للعبادة أو محراباً للنور والطهر والعفاف ، أو كعبة لسدنة الفن ، ولكن الموت اختطف حبيبته فبكى ورتل أناشيده العاطفية الحزينة فى لحن شجى وكلمات مؤثرة.. انظر إليه يقول :

عذبة أنت كالطفولة، كالأحلام
كاللحن ، كالصباح الجديد
كالسماء الضحوك كالليلة القمراء
كالورد ، كابتسام الوليد
يالها من وداعة وجمال
وشباب منعم أملود![1]
يالها من طهارة ، تبعث التقديس
فى مهجة الشقى العنيد !
يالها من رقة تكاد يرف الورد
منها فى الصخرة الجلمود ![2]

ويمضى أبو القاسم مصورا مدى ما كانت حبيبته تمثله له فى حياته المليئة بالكآبة والحزن والأسى فيقول :

أنت تحيين فى فؤادى ما قد
مات فى أمسى السعيد الفقيد
وتشيدين فى خرائب روحى
ما تلاشى فى عهدى المجدود [3]

(١) أملود : ناعم .
(٢) الجلمود : الشديد الصلابة .
(١) المجدود : المنعم .

من طموح إلى الجمال إلى الفن
إلى ذلك الفضاء البعيد
وتبثين رقة الشوق ، والأحلام
والشدو ، والهوى ، فى نشيدى[1]
بعد أن عانقت كآبة أيامى
فؤادى ، والجمت تغريدى[2]
أنتِ أنشودة الأناشيد غناك
إله الغناء ، رب القصيد
فيكِ شب الشباب ، وشحه السحر
وشدو الهوى ، وعطر الورود[3]

وينقل أبو القاسم لمحبوبته إحساسه بالموت ، وشعوره بالفناء فيقول فى نهاية القصيدة :

إنقذينى من الأسى ، فلقد أمسيتُ
لا أستطيع حمل وجودِى
فى شعاب الزمان والموت أمشى
تحت عبء الحياة جم القيودِ
وأماشى الورى ونفسى كالقبر
وقلبى كالعالم المهدودِ
ظلمة ما لها ختام ، وهول
شائع فى سكونها الممدودِ

(١) الشدو : الغناء .
(٢) الجمتى : كبلت وقيدت .
(٣) وشحه : زينه .

وقد عبر أبو القاسم فى قصائده الوطنيـة والغزلية والفلسفية التى يحملها ديـوانه عن حيـاتـه المليئة بـالكفـاح والشقاء والألم ، والعـامـرة بالأحـزان ، والحرمان ، والمغمورة بالكآبة والأسى حيث توفى والده وهو صغير ، ثم ماتت الفتـاة التى أحبها ، ولم يـوفق حتى فى حيـاتـه الزوجيـة ، ثم أُصيب بمـرض تضخم القلب حتى لفظ أنفاسه الأخيرة ، وهو لتوه يتفتح للحياة .

يقـول أبـو القاسم فى قصيـدتـه المشهـورة « إرادة الشعب » التى يحفظ الملايين من العرب مطلعها :

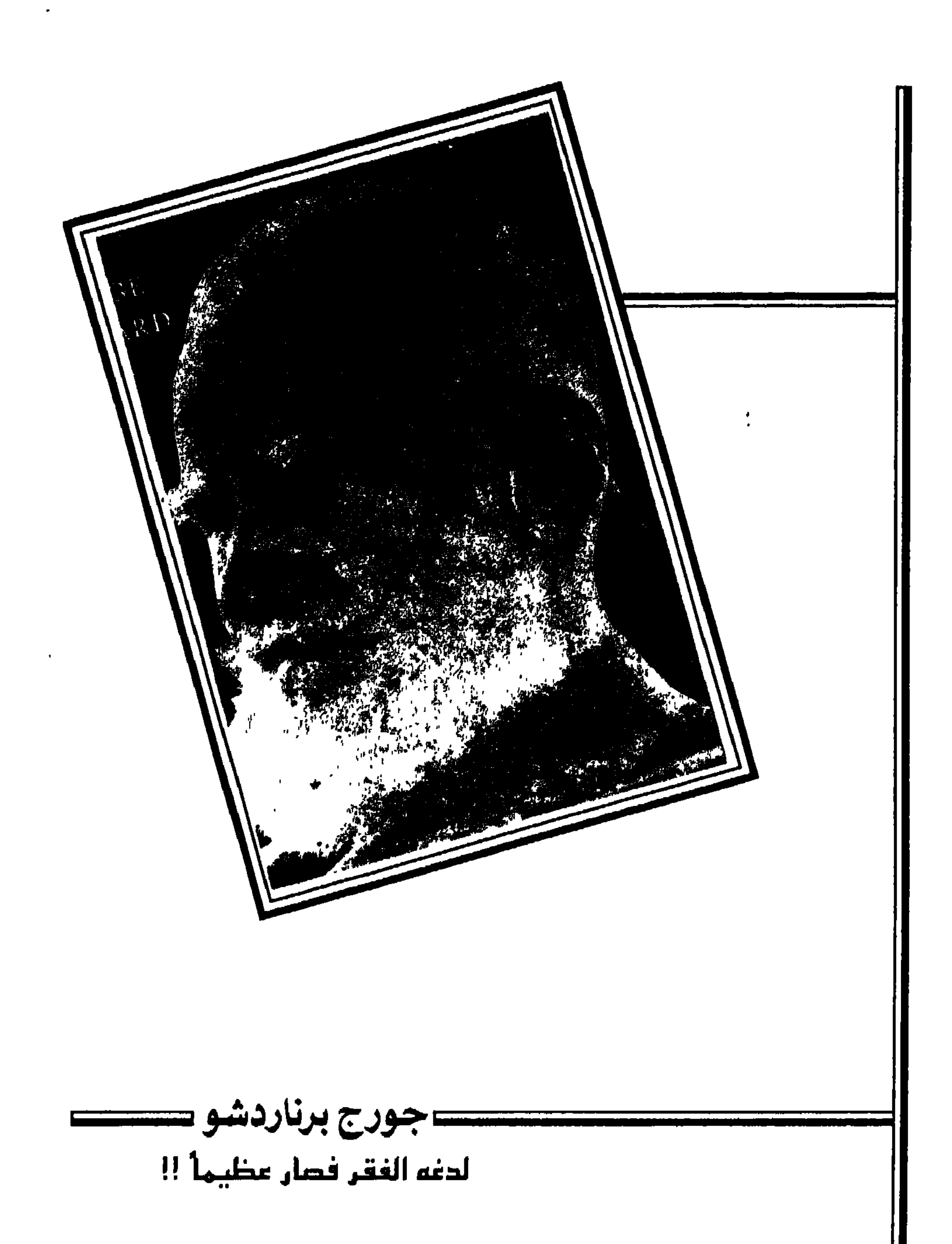
إذا الشعب يـــومـــا أراد الحيـــاة
فـــلابـــد أن يستجيـب القـــدر
ولابـــــد لليـلِ أن ينجـــــلى
ولابـــد للقيـــــد أن ينكسر

وقد كان أبو القاسم أيضا مجددا جـريئا ، صاحب دعوة تقدمية كبيرة فى الأدب الحديث . كـان يـريد أن يكـون الصـدق هـو الـركيزه الأسـاسيـة فى القصيدة وأن تكون الوحدة العضوية ، وحدة الموضوع والجو النفسى أهم من الجرص المفرط على شكل القصيدة على حساب هذه الوحدة .

ومن أهم أقوال هذا الشاعر العظيم التى تصور موقفه واتجاهه :

« إذا قرأنا لشاعر وجدنـا فيه إنسانا من لحم ودم ، يحيا ويتنفس ، يشعر ويفكر ، ويتجاوب معنا بالعاطفة والأحاسيس والخيال ، ينسينا لحظة وجودنا المحسوس بما يخلعه علينا من جمال الفن وصوره ، ويرتفع بمشاعرنا فوق دنيا هذا العـالم ومحقراته - إذا وجـدنا هذا الشـاعر فلنقرأه فى ثقـة وإيمان .. فإنه الشاعر حقاً » .. رحم الله أبا القاسم .

□○□○□



جورج برناردشو

لدغه الفقر فصار عظيماً !!



هذا أحد العظماء الذين لدغهم عقرب الفقر ، وبث فيهم سمه القاتل ، ولكنهم استطاعوا أن يتجاوزوا المحنة ، وينطلقوا إلى آفاق المعرفة ، ويرتادوا طرقا جديدة لم يسبقهم أحد إليها ، ليخرجوا فى النهاية إلى العالم بنتاج بشرى عملاق ، لا يصدر إلا عن عبقرى فذ لا تكبله ليالى الجوع أو سنوات الشقاء والعوز والحاجة .

كان « جورج برناردشو » واحد من القلائل الذين يأتون إلى الحياة لكى يسبقوا عصرهم ، كانت أفكاره السياسية والاجتماعية تلقى الضوء على مشكلات مزمنة فى المجتمع الإنجليزى والأوربى والعالمى ، وتتنبأ بما سيأتى بعد وما يتعين عمله .

لقد عاش شو فيما بين عامى ١٨٥٦ - ١٩٥٠ تلك الحقبة التى كانت تتفجر بالاتجاهات والأيديولوجيات المختلفة ، وكانت تمتلىء بالانتصارات العلمية ، والحروب الاستعمارية ، والتزمت الدينى فى أوربا ، مع وجود أصوات قوية تنادى بالتحرر مَن التقاليد وسلطان رجال الدين .

كما كان العصر الذى ظهر فيه شو هو عصر تحرير المرأة ، ومطالبتها المساواة بالرجل ، كما شهد العصر حربين عالميتين جعلت الناس فى كل مكان يرتجفون بشدة .

فى هذا العصر ولد شو بمدينة دبلن بأيرلندا فى أسرة فقيرة تجمع كل المتناقضات ، وتحيا فى جو غير مستقر لا يبعث الأمان فى قلب الصغير .

وفى الوقت الذى لم يعبأ أبوه باحتياجات أسرته الفقيرة الأساسية ، وراح يشرب الخمر ، ويمارس أسوأ العادات القبيحة ، كانت أمه على النقيض تماما

فقد كانت عاشقة للموسيقى ، دمثة الخُلُق ، مرهفة الحس ، رقيقة المشاعر .

ويقول شو : إن طفولته الأولى كانت بالنسبة له بلا معنى ، وبلا فائدة ، حيث إنه لم يتعلم فيها شيئا ، حتى إنه لم يعرف القراءة إلا فى سن متأخرة نسبيا عن أقرانه .

وبينما كان شو يمارس أعمالا كثيرة لكى يحصل على قوت يومه ، بينما يذهب أقرانه من أبناء الطبقات المقتدرة إلى المدارس والجامعات ، كان يلتهم كل ما يأتى فى طريقه أى أن ثقافته الحقيقية كانت ثمرة لمطالعاته الاختيارية ؛ كما أخذ ينمى مواهبه الموسيقية ، وعشقه لهذا الفن الذى ورثه عن أمه .

وفى سن الرابعة عشرة عمل شو كاتبا لدى سمسار عقارات فى دبلن ؛ ولكن العمل كان مرهقا ، وصاحبه كان رجلا فظ ، غليظ القلب ، متحجر المشاعر يريده للعمل طوال الليل والنهار دون عائد مجز يكفى حتى لالتهام ما يعينه على عمله الذى كان أيضا يتطلب السير لمسافات طويلة للغاية ، وهكذا عجز شو عن الاستمرار كصبى عقارات - كما يقول - فانتقل إلى لندن .

وامتدادا لسنوات الشقاء والكفاح فى خضم الحياة التى وجد شو نفسه فيها ، قضى تسع سنوات فى فاقه وعسر ، وحاول جاهدا أن يعمل ناقدا موسيقيا فلم يفلح ، كتب عدة كتب مدرسيه وقصص للأطفال رفضها الناشرون دون سبب أو مبرر مقنع .

وعمل شو فى شركة كهربائية ، وأيضا لم يستمر ، وحاول رفاقه انتشاله من الجوع والتشرد ، وإعانته على مواجهة نفقات الحياة الصعبة فى لندن .. حاولوا الحصول على عمل شريفا له ، وأيضا لم يفلحوا ، وربما كان يقيه من

الجـــوع من وقت لآخر تلك النقـــود القليلـة التى قد تبعث إليه بهــا أمه إذا ما قامت بتدريس الموسيقى لأحد الهواة بالصدفة .

وهـنا بـدأت قصـص شو تـرى النور ، وخاصة قصصـه الخمس الأولى « المراهقـة » و « العقــدة السخيفة » و « حـب الفنانين » و « مهنـة كاشـــل بيرون » و « الاشتراكى غير الاجتماعى » ، ومع ذلك فقـد كانت قصـة « مهنة كاشل بيرون » هى بـدايته الحقيقية ، حيث طلب منه أحـد من تَعَرَفْ عليهم من مخرجى المسرح تحويلها لمسرحية فحــولها شو إلى هزليـة شعريـة بعنـــوان « الوفاء الضائع » .

وما هى إلا فترة قصيرة حتى وجد شـو ضالته المفقودة فى المسرح ، ومن هنا بـدأ كتابة أعماله العظيمـة التى جعلته بشهادة جميع النقـاد أعظم كُتَّاب المسرح الإنجليزى بعد وليام شكسبير .

وبدأ الحظ يبتسم أيضا لشو عندما عمل بالصحافة وكان يقدم للكتب الجديدة بمجلة « بول مول » والصـــور لمجـلة « العـالم » ، والموسيقـى لمجـلة « ستار » ، والمسرح لمجلة « سترداى رفيو » .

وقد كانت كتـابات شو كالـرصاص على رءوس المتحذلقين والمتأدبين ، ومحترفى الأدب الردىء ، كما كـان ناقدا موسيقيـا عظيما جعل للنقد الموسيقى فى عصره شأنـا عظيما ، حيث قـرب أيضـا الموسيقى إلى الأفهـام وجعلهـا فى متناول قطاعات عريضة من الجماهير .

وهجـا شــو مشاهير المسرح والموسيقى فى عصره ودافع ومـدح مشـاهير آخرين رأى أنهم يقـدمون قيمـة فنية سـامية ، ويطـرحون على النـاس أفكارا إصلاحيـه من شأنها أن تساهم فى إيجاد حلول لمشكلاتهم ، وإزاحـة ما يثقل على أنفسهم من هموم ومتاعب .

ولأول مرة يتقبل الإنجليـز نقدا لاذعا للكـاتب العظيم وليام شكسبير ، وربما لو لم يكتبه شو المحترم بين أوساط المثقفين لما تركوه يفعل ذلك .

واكتشف شــو فى نفســه فن الخطـابة ، فكـان يخطب فى النـاس مهـاجماً الأحكـام العرفيـة التى كانت تُفـرض عليهم من وقت لآخر ، ويحاول إفهـام الناس لحقيقتها .

والحقيقه أن شو كان عظيما فى فنه ، كان مسرحه عبارة عن درس تعليمى وتثقيفى للناس ، فتـارة ينصحهم بعد الاستسلام لمافيا الانتخـابات ، ويحاول أن يبين لهم من خـلال مسرحه ، كيف سيحـاول المرشحون خـداعهم ، لكى يحصلوا على أصواتهم .

ومن مسرحيات شو التى لاقت نجاحـا ساحقا على المسرح « اندروكليز والأســد » ، و « بجماليون » ، و « منزل القلوب الكســيرة » و « العـــودة إلى متوشالح » و « تلميذ الشيطان » و « الميجـور باربرا » و « بيوت الأرامل » و « الإنسان والإنسان الأعلى » .

وبعـد ما كـان يلهث شو وراء لقمـة العيش ويصارع الحيـاة ، ويكابـد متـاعبها ، أخـذت الأموال تطـارده ، ومع ذلك كان شـو ينتمى بعقيدتـه إلى الاشتراكيـة الفابيـة التى خـرجت من الطبقـات الدنيـا التى لا تعـرف معنى للحياة لما تعانيه من فقر وحرمان ، وإحساس بالضآلة والهوان .

ويظل شـو على حالـه هـذا حتى يحصل على جائزة نـوبل فى الآداب فى عام ١٩٢٥ ، وكان قدرها وقتذاك ٧٠٠٠ جنيه استرلينى وهى تعادل الآن ما يزيـد عن مليون دولار ، وقد رفض شـو قبول الجائزة المالية فى البدايـة إلا أنه تسلمها بعد فترة ، ليقـدمها هدية للهيئـة السويدية الإنجليـزية لنشر الأدب السويدى فى البلاد الناطقة بالإنجليزية .

وبعد نوبل اتجه شو إلى الكتابة السياسية والاجتماعية وقدم عشرات الكتب مثل « دليل المرأة الذكية فى الاشتراكية والرأسمالية والماركسية والبلشفية » ، « ما كتبته عن الحرب حقيقة » ، « أوهام الأطباء - إجرام لم ينضج وتعليم خادع » و « مستشفى المجاذيب السياسيين أمريكا وإنجلترا » ، و « الدليل السياسى لكل إنسان » .

وظل شو يكتب إلى ما بعد الستين ، فقد كانت الكتابة هى كل حياته ، وقد كان شديد الحفاظ على صحته ، فمثلا كان نباتيا لا يأكل اللحم ، كما أنه لم يدخن أو يتعاط الخمور ، وهو يقول فى ذلك : « اعتقد أن الإنسان الذى يقتات بالأجسام الميتة والويسكى لا يستطيع أن ينتج خير ما فى مقدوره » .

ويقول شو العظيم مقبحا عادة التدخين اللعينة : « تحقق لى قبل أن أخرج من دور المراهقة أن من السخف أن ندفع أجرا لمن ينظف لنا مداخن المدفئات فى الوقت الذى نملأ غرفنا بالأدخنة القذرة الصادرة عن أحد الأعشاب الكريهة » .

ويُعتبر شو من العظماء القليلين الذين امتازوا بخفة الظل ، وروح الدعابة اللا محدودة التى لم تفارقه حتى وافته المنية فى عام ١٩٥٠ .

□○□○□





نجيب محفوظ

من الحارة إلى نوبل !



فى ليلة من ليالى الشتاء الباردة ، وفى إحدى الحارات بحى الجمالية فى قلب القاهرة القديمة ، انبعثت من أحد المنازل الصغيرة صرخات سيدة تعثرت ولادتها . حاولت « الداية » قدر جهدها إخراج الجنين ولكن دون جدوى ، حتى اضطرت إلى نصح الأب باستدعاء الطبيب ، الذى وصل بعد لحظات ، وكان اسمه نجيب محفوظ .

وتمت عملية الولادة ، وخرج الصغير إلى حيث الحياة ، وحلت صرخاته محل تلك التى كان تصدر عن أمه ، وعرفانا بفضل الطبيب الماهر ، وامتنانا له ، واستبشارا به ، قرر الأب أن يطلق اسمه على وليده ، فصار اسمه « نجيب محفوظ » وظل حتى يومنا هذا .

ومنذ اليوم الحادى عشر من ديسمبر عام ألف وتسعمائة وإحدى عشر والجنين الذى تعثرت خطواته الأولى فى الحياة ، يسرع الخطى نحو ما ينتظره من مجد وفخار ، وكان أول المشوار هو حارته الصغيرة التى نشأ فى أحضانها .

فالحارة هى عالم نجيب محفوظ الأديب المصرى والعالمى الكبير سواء حملت هذه الحارة اسما كما هو فى أعماله الأولى « أولاد حارتنا » و «الحرافيش» و « السكرية » و « بين القصرين » ، « قصر الشوق » ، « زقاق المدق » أو جاءت بلا اسم كما هى فى أعماله الأخيرة .

لقد قضى نجيب محفوظ سنوات عمره الثلاث عشرة الأولى فى حى الجمالية الذى ترك أثرا كبيرا عليه وشكل وجدانه ، وكان دوما منبع إلهامه الذى جعله يبدع فى تصوير الأماكن التى تقع فيها أحداث رواياته ، ويبرع

فى رسم شخصياته بكل ما تجمعه من نماذج بشرية مختلفة ، وعلاقات إنسانية متباينة كما هو الحال فى روايتى « أولاد حارتنا » و « الحرافيش » .

ويؤكـد نجيب محفوظ فى أكثر من منـاسبة أن تقدم العمـر من شأنه أن يؤكد للإنسان أن أصله هو الحقيقـة الباقية فى هذا العالم الغريب . إن العودة إلى الطفولـة مع تقدم سنى العمر ، هى عودة إلى الأمـان المفقود ، الحارة هى ملاذ وملجأ نجيب محفوظ الدائم .

فمنذ أن أخذ نجيب محفوظ يشـب عن الطوق ، وهو يحاول التعرف على حارتـه الصغيرة ، والحى القديم الذى تقبع فيه حيث رائحـة التاريخ ، وعبق الماضى ، حيث المآذن القـريبـة ، والمسـاجـد العتيقـة ، كـالأزهـر والحسين والغورى والأقمر وبرقوق .

منذ ذلك الـوقت ونجيب محفوظ يختزن فى خيـاله كل صغيرة وكبيرة عن حيه : مـا يحويه من أناس ومـا يضمه من أمـاكن تضرب فى أعماق التاريخ ، وعندما كبر الغلام ، وحاول أن يسترجع فى روايـاته ، ما ألم به من قبل ، برع فى تصـويـر « المحلية » وأبـدع فى نقلهـا حتى وصل بها إلى « العـالميـة » حيث أصبحت تـراثـا إنسـانيـا قـريـب من وجـدان كل البشر ، وفى شتى أنحـاء المعمـورة .

ولم تكن سنوات محفوظ الثلاث عشرة فى الجمالية ثم انتقاله إلى العباسية هى فقط التى أثـرت فيه ؛ وإنما كانت هنـاك أسرته التى كـانت تغلب عليها النزعـة الدينية وأمــه التى كـانت تصحبه إلى أماكن أثـرية وتـاريخية تلهب مخيلته ، وتستثير وجدانه ، وتستدعى قدراته ومواهبه الفطرية .

كما شهد محفوظ وهو طالب بالمدرسة ثورة ١٩١٩ ، والمظاهرات ضد المحتل الغاصب ، وسقوط الشهداء برصاص الجنود الإنجليز ، ودراسة القانون ؛ وبعد ذلك الأحداث التى داهمت مصر والعالم العربى من حروب وثورات وانقلابات وأحداث وخطوب شتى .

ومن عوامل التكوين الفكرى لنجيب محفوظ قراءاته الأولى المترجمة (سير والتر سكوت ، وسير هنرى رايدر هيجارد) ، وكيف كان يعيد كتابة القصة التى يقرأها مع إضافة بعض التفاصيل من حياته الخاصة ، ثم قراءاته للمنفلوطى وطه حسين والعقاد ويحى حقى والحكيم ومحمد حسين هيكل ، وسلامة موسى .

ولسلامة موسى مكانة خاصة لدى محفوظ ، فهو الذى نشر له أول مقالة له بمجلة « المجلة الجديدة » التى كان يصدرها فى الثلاثينات ، كما نشر له سلامه موسى أولى رواياته « عبث الأقدار » .

ولم يقف نجيب محفوظ عند هذا الحد من القراءة ؛ بل عاد إلى الأدب العربى القديم يغترف منه ثم اتجه إلى الفلسفة ، والأدب العالمى فقرأ « لتولستوى » و « بريخت » و « توماس مان » ، وغيرهم ممن ظهر أثرهم جليا فى أعماله ، حيث تأثر ببعض أفكارهم ، واتجاهاتهم .

وربما لا يعرف البعض أن روايات محفوظ التى بدأ بها حياته كانت « فرعونية » تتحدث عن التاريخ الفرعونى القديم مثل « عبث الأقدار » ، « رادوبيس » و « كفاح طيبة » .

ولكن ما أن جاء عام ١٩١٧ حتى بدأ الأديب الكبير فى كتابة « ثلاثيته الخالدة » ، التى صور فيها ما يدور فى مصر من حياة سياسية واجتماعية

واقتصادية خلال الفترة من ١٩١٧ مرورا بـ ١٩١٩ ، وحتى عام ١٩٤٤ أى أن الثلاثية « بين القصرين » ، « قصر الشوق » ، و « السكرية » تبدأ فى منتصف الحرب الأولى وتنتهى مع نهاية الحرب الثانية .

ثم كتب نجيب محفوظ روائعة « اللص والكلاب » ، « السمان والخريف » ، « الطريق » ، « الشحاذ » ، « ثرثرة فوق النيل » ، « ميرامار » ، « الكرنك » ، « قلب الليل » ، « أفراح القبة » .

ولم يكن الأديب العظيم مجرد روائى فذ وإنما لو لم يكتب الرواية واكتفى بما قدمه من قصص قصيرة لكان أيضا دخل تاريخ الأدب العربى بجدارة ، فله حوالى مائتى قصة قصيرة موزعة على أربعة عشرة مجموعة قصصية فى الوقت الذى كتب فيه ٣٣ رواية معظمها أعمال رائعة سواء من ناحية الشكل أو المضمون والرؤية .

وقد شهد العالم كله ببراعة نجيب محفوظ فى فن الرواية والقصة القصيرة ، وعاش معه عوالم مختلفة تضم الشرفاء والمجاهدين ، والخونة والمتآمرين والخارجين على القانون والمتمردين على حياتهم وطبقاتهم ، وأولاد الذوات ، وأولاد الفقراء ، لقد صور محفوظ نماذج مختلفة من البشر بمنتهى الدقة والروعة والجمال .

ورغم حصول الأديب العملاق على جائزة نوبل فى الآداب لعام ١٩٨٨ ، إلا أن إعلانه فائزا بهذا التقدير العالمى جاء متأخرا عن موعده ، فأعمال محفوظ التى استحق عنها الجائزة بجدارة موجودة ومترجمة للغات عالمية عدة منذ أكثر من ثلاثين عاما ، إذن فمنحه الجائزة كان بمثابة اكتشاف جديد لواقع قديم .

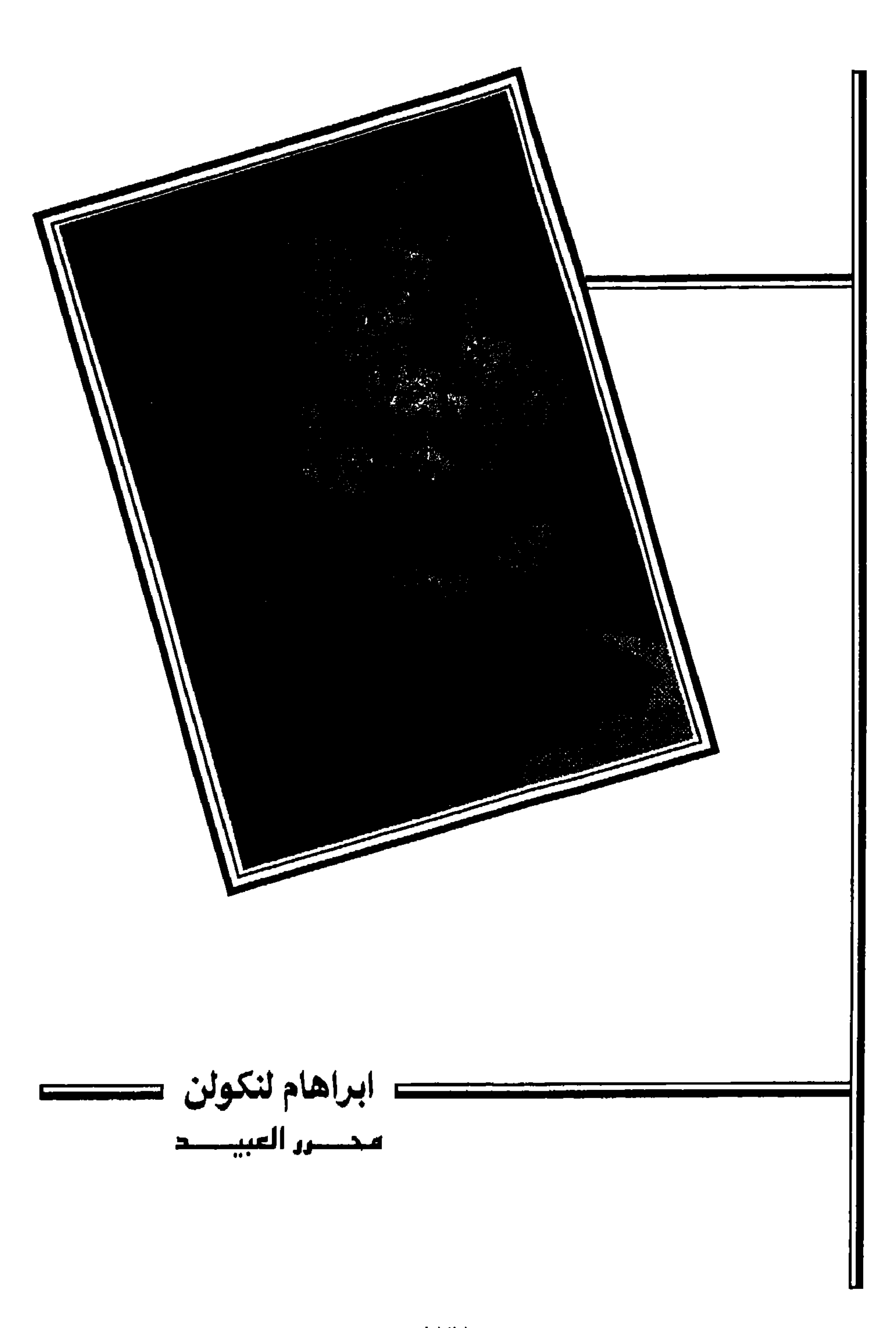
ويبدو أن هـذا هو الأمر الذى حد من سعادة وغبطة محفـوظ بالجائزة ، حتى إنـه قال : « إننـا لا يعنينا نـوبل ولا غير نوبل » . وقـال : « لو جـاءت نـوبل مبكـرا فى صدر الشبـاب أو بعـد ذلك بقليل لـربما كـانت ذات طعم ومزاق آخرين ولكن فى نهاية العمر لا تعنى مثل الشىء » .

وكم كان محفـوظ عظيما عندما قال - عقب إعـلان فوزه بالجائزة : « إنها أخطأت قمم عـربية كبيرة سواء أدبيـة أو فكريـة سبقته أمثـال عميد الأدب العـربى الراحل الـدكتـور « طه حسين » ، والمفكـر الكبير الراحل « عبـاس محمود العقاد » ... وغيرهم » .

هذا هو نجيب محفوظ الذى ولد ونشأ فى أحضان الحارة المصرية ثم بلغ أعظم مـا يمكن أن يصـل إليـه أديب فى العـالم ، لقـد أطفـأ نجيب محفـوظ الشمعة رقم ٨٢ فى حيـاته فى ديسمـبر ١٩٩٣ ، ولكـن هذه الشموع الـ ٨٢ ليست كل مـا أضاء بـه حياتنـا من شـموع ، فأعمالـه العظيمة ، بـاقية أبـدا وضاءة ، متـوهجة فى وجدان الشعب المصرى والعـربى والعالمى ، فقـد حفر هذا الأديب . الفذ بأدبه صورة خالدة لمسيرة شعبه منذ أوائل هذا القرن فأرخ الأدب ... أو أدب التاريخ ، وجعل أدبه صورة نـاطقة ، ومرآه عاكســة لكل ما يـدور فى مجتمعــه حـتى أبـدع فى تصــوير « المحلية » ووصــل بهــا إلى « العالمية » لكى يتـأثر بها ، وينفعل معها ، كل قارىء فى أى مكـان بالعالم ، وهذه عظمة نجيب محفوظ !.

□○□○□





ابراهام لنكولن

محرر العبيد



عندما وصل المحامى المبتدىء الطويل القامة ابراهام لنكولن إلى سبرنجفيلد ، عاصمة ولاية إلينوى الأمريكية ، كان لا يملك سوى أصابع يده ، وكيسين من القماش بهما آخر ما تبقى من ملابسه ، التى لم تكن سوى سروال أكل عليه الدهر وشرب ، وقميص بالكاد تستطيع أن تميز لونه الباهت الممسوح من كثرة الاستعمال ، وجاكيت سىء المنظر يقيه برد الشتاء القارس .

كان لنكولن عند وصوله من قريته المتواضعة القريبة من المدينة واسمها « نيوسيلم » فى غاية البؤس ، غارقاً فى ديونه حتى أذنيه ، ولم يكن معه أية نقود يمكن أن يسكن بها أحد المنازل ، حتى الحصان الذى جاء المدينة على ظهره كان قد استعاره على سبيل الأمانة .

وحتى لا يهيم لنكولن على وجهه فى الشوارع ليلا ونهارا ، أو يضطر للعودة من حيث أتى ، عرض عليه أحد أصحاب المتاجر أن يشاركه غرفة نومه القابعة أعلى المتجر بعد ما أحس بمدى نقاء سريرة صاحبنا ، وكرم خلقه ، ونبل مقصده .

وبدت الحياة صعبة أمام الشاب الوسيم الذى كان يستطيع أن يجعل مستمعيه يستمرون فى أماكنهم بلا حراك من حلاوة حديثه ، وعذوبة كلماته .

فى البداية ، بدأ يزاول لنكولن أية أعمال يرتزق منها ، كما اشتغل بالأرض كى يجد ما يسد به رمقه ؛ ولكن وبعد دراسة مستفيضة وواسعة فى القانون

أصبح لنكولن شريكا أصغر لأحد المحامين الكبار ، وكان لنكولن بالنسبة لشريكه فى البداية ضئيل الشأن ؛ حتى أثبت مواهب وقدرات لم يألفها الناس من قبل ، كما كان يتمتع بصفه خاصة بقوة تأثير طاغية يمكنها تغيير أى اتجاه ، أو تقويم رأى ، أو تعديل سلوك .

ورغم الصعوبة التى وجدها لنكولن فى البداية فى سبرنجفيلد والإحساس الذى كان علية القوم هناك يصدرونه إليه دائما بأنه يفتقد الميزات التى يكفلها الانتساب إلى أسرة عريقة والاختلاط با لمجتمع .

ولكن وبالنظر إلى الجرح العميق الذى خلفته هذه التفرقة المميتة فى نفس لنكولن ، إلا أنه كان دوما يفتخر بأنه ابن لأبوين فقيرين غير متعلمين ولكنهما مستقيمان يخشيان الله .

وقد أحب لنكولن فى تلك الفترة فتاة ارستقراطية تدعى « مارى تود » ، وأخذ يتردد على الأسرة ، ويخرج معها حتى أفضى كل منهما إلى صاحبه بحب طاغ للآخر يملأ عليه كل حياته .

وفى أواخر عام ١٩٤٠ تمت الخطبة وتوج الحب ملكا على عرش المحبين ، ولكنه حب لا يخلو من أزمات عاطفية ، ومشكلات عائلية بسبب معارضة والديها لزواجها من لنكولن المتواضع .

وقد جدد هذا الفشل الجراح ، وأثار ذكريات مريرة كان يحاول لنكولن نسيانها ، فقد جعله يشعر بنقصه الاجتماعى ، والفقر الذى يلازمه كظله ، وتواضع نشأته التى يعاقبه عليها مجتمع ظالم ، ولك أن تعرف أن لنكولن نفسه هو الذى طلب فسخ الخطبة حفظا لماء وجهه ، وحفاظا على كرامته ، وانفصل الحبيبان فترة من الوقت ؛ ولكن سرعان ما جمعهما الحب من جديد

الذى كان أقوى منهما وقررا الزواج ، بل وذهبا إلى القيس وحددا اليوم وثارت أسرة مارى ، وشنت حربا لا هوادة فيها ضد لنكولن الفقير ، ولكن القدر كان له الحكم الأخير وتوجت قصة الحب فعلا بالزواج الذى استمر حتى نهاية العمر .

وقد ساعد زواج لنكولن على استقراره النفسى ، واهتمامه بعمله ، وتركيزه فى مشاركته السياسية والاجتماعية فى « سبرنجفيلد » حتى تم اختياره عضوا بالمجلس التشريعى بالولاية ومنذ ذلك اليوم علاقدره ، وبزغ نجمه ، وقد ساعد على ذلك اختياره قضية خطيرة كأهم موضوع فى حياته ، وأكبر الأهداف التى يسعى نحو تحقيقها ، هذه القضية هى « الرق » .

ويمكن القول إن موضوع « الرق » أو تجارة العبيد والتفرقة المهينة بين السادة والعبيد كانت هى بداية الطريق الذى سار بصاحبه إلى العظمه والمجد والخلود .

لقد كان للنكولن صولات وجولات وخطب ، ومقالات واجتماعات ونداءات للقضاء على الرق وتحقيق المساواة ، ورفع شعار « لا سيد ولا عبيد كلنا سواسية » ، وقد لاقى لنكولن حربا ضارية شنها ضده الإقطاعيون الذين يجنون الثروات من تشغيل العبيد الذين قاموا بشرائهم هم ومن سيأتى من نسلهم ، كما تعرض ذات مرة لمحاولة اغتيال بسبب إصراره على القضاء على العبودية .

وقد كان لنكولن خطيبا مفوها ، وسياسيا لبقا ، ومفكرا واعيا ، ورجل إصلاح أمينا ، وفى عام ١٨٥٨ رشح لنكولن نفسه لمجلس الشيوخ الأمريكى .

وكانت حملـة لنكولن الانتخـابية كلهـا ثورة على نظـام العبيد ، وحـربا ضارية ضد أنصار السخرة والقيود ، والـلا إنسانية ، وقد كان للرجل خصم عنيد هـو « ستيفن دوجـلاس » ، الذى شهـدت الانتخابـات معركـة دامية بينهما خرج منهـا دوجلاس فـائزا ؛ ولكن لنكولن أصبح فى نظـر الأمريكيين شخصيـة قـومية ، ورجـلا يستحق المسـانـدة والتأييـد . صحيح لم ينجح فى المدينـة ولكنـه كسب تأييـد جميع الـولايـات ولم يمضِ عـامين حتى كسب لنكولن ترشيح الحزب الديمقراطى له لرئاسة البلاد .

وهكذا أصبح الشاب الفقير البائس لنكولـن رئيسا للولايات المتحدة ، وعلى يـديه تم إلغـاء نظام العبيـد وأصبحت أمريكـا مكانـا يتسع للجميع ، يقتسمون خيراتها ، ولهم نفس الحقوق والواجبات .

ومع نجاح لنكولن السـاحق وتأييد الأمريكيين له إلا أن خصومـه كـانوا يرقبونه ، ويتحينـون الفرصة للانقضاض عليه ، وفى يـوم الجمعة الرابع عشر من أبريل عام ١٨٦٥ ، انطلقت رصاصـة غـادرة صـوب صـدره سرعان مـا أردته قتيـلا . مشهـد يشابـه إلى حـد كبير مصرع الرئيس الأسبق « جـون كينيدى » ، فكما كـانت تجلس بجـانبه زوجتـه « جاكلين » كانـت « مارى » تجلس إلى جانبه عندما قُتِلَ ليتركها هى وأولادها الأربعة يقاسون الفراق .

وودع العالم لنكولن محرر العبيـد وسط حزن بالغ خاصـة لتاريخ الرجل الطويل ، وكفاحه لتحرير الإنسانية المعذبة من القيود والأغلال .

□○□○□

مصادر الكتاب

١ - محاكمة سقراط - بدوى أبو ديب .
٢ - محمد علي الكبير - شفيق غربال .
٣ - بناة النهضة العربية - جرجى زيدان .
٤ - هذا مذهبى - طه حسين .
٥ - تيارات ومذاهب فنية وأدبية - عبد المنعم الحفنى .
٦ - عباقرة رحلوا زهورًا - فايز فرج .
٧ - التعريف بشكسبير - عباس محمود العقاد .
٨ - أشعار بيرم التونسى - مكتبة مدبولى .
٩ - لماذا انتحر هؤلاء - هانى الخير .
١٠ -غرام العظماء - إيرفنج وآمى والس .
١١ -الخالدون مائة أعظمهم محمد رسول الله « صلى الله عليه وسلم » - أنيس منصور .
١٢ -لكل فنان قصة - حسين بيكار .
١٣ -روائع الفن العالمى - جمال قطب .
١٤ -أشهر الرسامين والموسيقيين - سعيد جودة السحار / جمال قطب .
١٥ -بلابل من الشرق - صالح جودت .
١٦ -الأيام - طه حسين .
١٧ -شخصيات مصرية - د. أحمد عبد الرحيم مصطفى .
١٨ -عباس محمود العقاد - يوسف الحمادى .
١٩ -عمالقة من صعيد مصر - محمد صادق .
٢٠ -بيرم التونسى - كمال سعد .
٢١ -فى تلك السنة هؤلاء العظماء وُلِدُوا معاً - أنيس منصور .
٢٢ - خطباء صنعوا التاريخ - أنور أحمد .

□○□○□



فهرس الكتاب

الموضـــــــوع	الصفحة

□○□○□












ت : ٩٣٢٧٠٦

تكثر فى هذا العصر الدعاوى المغرضة ، والآراء الهدّامة ، التى تحاول أن تجرد عظماء التاريخ من عظمتهم ، وتفرغ تراث الإنسانية الخالدة من محتواه . وهناك عمليات إبادة تاريخية ، تستند إلى كُتّاب مأجورين ، مهمتهم اغتيال مكانة عمالقة عاشوا بيننا ذات يوم ، وأثْرَوْا حياتنا الفكرية والثقافية . كما يردد البعض مقولة سخيفة مفادها أن البطل ليس بطلاً باختياره ، وإنما نتاج اضطرارى لعصره ، وهذا يجرده بالطبع من الإرادة ، والإصرار على الكفاح النابع من الإيمان بقضية معينة .

وهذا الكتاب محاولة لتسليط الضوء على بعض عظماء التاريخ ، والطريق الصعب الذى قطعوه ، والثمن الفادح الذى دفعوه حتى بلغوا ما وصلوا إليه ، كمحاولة للتواصل مع جذور تراثنا الإنسانى حتى لا نرقص فى الهواء بلا قدمين !! .

الناشر

طبع
نشر
توزيع



دار الأمين
DAR AL AMEEN

١ شارع سوهاج من شارع الزقازيق خلف قاعة سيد درويش الهرم . الجيزة
١ ش محمد محمود باب اللوق (برج الأطباء) القاهرة ت : ٣٥٥٨٤٦١